

وزارة الثقافة
ALGERIE

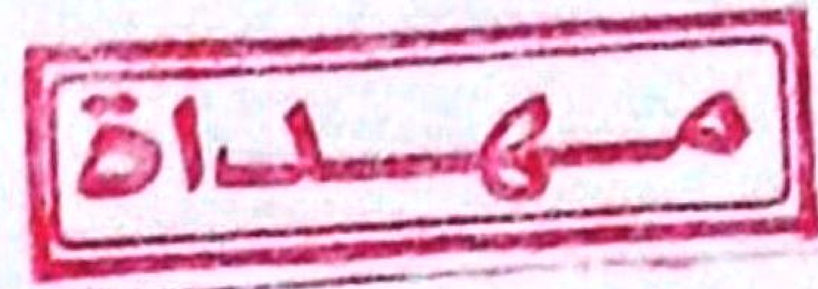
الأعمال الخاصة بالجزائر 4

البشير الإبراهيمي

عظيم من الجزائر

تأليف
عادل نويهض

دار الأبحاث







الأعمال الخاصة بالجزائر ④

البشير الإبراهيمي

عظيم من الجزائر

تأليف

عادل نويهض



دار الأبحاث

الأعمال الخاصة بالجزائر ④

البشير الإبراهيمي

عظيم من الجزائر

بين يدي الكتاب

في الرُّبْعِ الأوَّلِ من القَرْنِ السَّادِسَ عَشَرَ الميلادِيِّ، وعلى وجهِ التَّحديدِ، في سنةِ 1519 ميلاديَّةً، دَخَلَتِ الجزائرُ في حَوزةِ العثمانيينَ، وأصبحَتْ هي وليبيا (سَنَةَ 1551م) وتونِسَ (سنةَ 1574م) ولاياتٍ عثمانيَّة.

وفي هذا القَرْنِ بالذَّاتِ، بَلغتِ الدولةُ العثمانيَّةُ أوجَ مَجْدِها واتِّساعِها، فقد بَسَطَتْ سِيادَتَها على القوقاسِ، والقرمِ، واليونانِ، وآسيَا الصُّغرى، والمشرقِ العربيِّ، وأقطارِ المغربِ، عَدَا مَرَّاكِشَ.

وقدِ استطاعَ المسؤولونَ العثمانيونَ أنْ يُحافِظُوا على قوَّةِ وهيبةِ الدولةِ، حتى أواخرِ القَرْنِ السَّابعَ عَشَرَ، ثُمَّ بَدَأَ الضَّعْفُ يَدِبُّ فيها، لِعِدَّةِ أسبابٍ، لا مجالَ لذكرها، في هذه العُجالةِ، ثُمَّ سارتْ بِخطىً سريعةٍ نحوَ الانهيارِ، إلى أنْ تَمَّ زوالُها في الرُّبعِ الأوَّلِ من القَرْنِ العشرينَ، أي بعدَ الحربِ العالميةِ الأولى.

لَقَدْ أدَّى هذا الضعفُ في جسمِ الدولةِ، إلى ضَيَاعِ كثيرٍ من مُمتلكاتِها في جنوبِ شرقِيِّ أوروبا، والمَشْرِقِ والمَغْرِبِ. ومن بين

الأقطارِ التي فَقَدَتْها واحداً بعدَ الآخرِ، منذُ بدايةِ ضعفِها حتى أواخرِ أيامِها: -

1 - المَجَرُ سنةَ 1687م.

2 - ألبانيا سنةَ 1718م.

3 - مَسْقِطُ وساحِلُ عُمانَ 1800م.

4 - الخليجُ العربيُّ 1820م.

5 - اليونانُ 1820م.

6 - الجزائِرُ 1830م.

7 - رومانيا 1856م.

8 - بلغاريا 1778م.

9 - تونسُ 1881م.

10- مِصْرُ 1882م، وبعدها السودان.

11- مراكشُ 1912م.

12- ليبيا 1913م.

ثم فقدت بَقِيَّةَ الأقطارِ العربيَّة بعد انتهاءِ الحربِ العالميَّةِ الأولى.

* * *

وإذا كانتِ الدُّوَلُ الأوروبيَّةُ قد خَرَجَتْ من تحتِ السَّيطرةِ

العثمانيَّةِ، لِتَحْكُمَ نفسَها بنفسها، فإنَّ جميعَ الأقطارِ العربيَّةِ ـ ما عَدَا اليمنَ ـ وَقَعَتْ في قَبضةِ فرنسا، وبريطانيا، وإيطاليا.

وكانتِ الجزائرُ أوَّلَ دولةٍ عربيَّةٍ يَدْخُلُها الاستعمارُ الفرنسيُّ بقوةِ الحديدِ والنَّارِ، والبَطْشِ، والغَدْرِ، وكانَ ذلكَ في عهدِ السُّلطان العثمانيِّ محمود الثَّاني بنِ عَبْدِ الحميدِ.



إنَّ الفَتْرَةَ التي غَزَا فيها الفرنسيونَ أرضَ الجزائرِ، كانتْ فترةً عصيبةً، بالنسبةِ للشعبِ الجزائريِّ، فالتيَّاراتُ السياسيَّةُ التي لعبتْ دورَهَا في المنطقةِ، ساعَدَتِ الغاصبَ المحتلّ على تحقيقِ أهدافِهِ، وبَسْطِ سُلطانِهِ على بُقعةٍ من الأرضِ في أولِ الأمرِ، ولكنَّ الشعبَ الجزائريَّ أَبَى الخُضوعَ للمستعمر الجديدِ، وعَقَدَ العزمَ على أنْ يَسْتَرِدَّ كلَّ شِبْرٍ من أرضِ آبائِهِ، وأجدادِهِ، أو أنْ يموتَ دُونَهُ.

والشَّعبُ الجزائريُّ يشهدُ له تاريخُهُ الطَّويلُ عَبْرَ العصورِ على أنَّه ما رَقَدَ على ضيمٍ أَصَابَهُ، أو رَضَخَ لمستعمرٍ، أو تَخَلَّى يوماً عن وطنيَّتِهِ وحُرِّيَّتِهِ، أو تَقَاعَسَ ساعةً عنِ الدفاعِ عن دينِهِ وقوميَّتِهِ وأرضِهِ، حتَّى في أحلكِ الظُّروفِ وأَشدِّ المعاركِ ضراوةً.

لقد قاومَ هذا الشَّعبُ البَطَلُ جحَافِلَ الغُزَاةِ في مُخْتَلِفِ العصورِ، وانتصرَ عليهم بفضلِ وَحْدَتِهِ تحتَ لِواءِ الإسلامِ والوطنيَّةِ.

ولعلَّ ثورتَهُ الخالدةَ التي قَامَ بها في أولِ نوفمبرَ ـ تشرينَ الثَّاني

ـ سنة 1954 ميلاديَّةً، تكونُ أصدقَ بُرهانٍ على مَدَى إيمانِهِ العميقِ بالوطنِ والإسلامِ والعروبةِ، ففي سبيلها ترخصُ عندَهُ النفوسُ، وتَهونُ الشَّدائدُ، وتَلينُ الصِّعابُ، وتَحلو الشَّهادَةُ.

وإذا كانَ الجزائرِيُّونَ ـ كبقيةِ إخوانِهِمْ في الوطنِ العربيِّ الكبيرِ ـ قد قَبِلُوا بشيءٍ من الامتعاضِ حُكْمَ العثمانيينَ لهم، لأسبابٍ دينيةٍ وسياسيةٍ معاً، إلاَّ أَنَّهم أَبَوا الرُّضوخَ والاستسلامَ للمستعمرِ الجديدِ، وأَبَوا عليه التحكُّمَ في مصيرِهِمْ كَشَعْبٍ، ومصيرِ بلدِهِمْ كدولةٍ، تماماً كما فعلَ بقيَّةُ إخوانِهِمْ فيما بعدُ في أقطارِ العَرَبِ، حينما تَنَادَوا للنضالِ والجهادِ، ضِدَّ الإنجليزِ، والإيطاليينَ، والفَرنسيينَ.

وتاريخُ الجزائرِ في كفاحِها المقدَّسِ حافلٌ بالأبطالِ، فمنهُمُ الأميرُ عبدُ القادرِ الجزائريُّ، الذي قاتَلَ الفرنسيينَ سَبْعَةَ عَشَرَ عاماً.

ومنهم بَطَلُ كِتابِنا هذا، الإمامُ محمد البشير الإبراهيميُّ، الذي كَرَّسَ حياتَهُ من أجلِ تحريرِ وطنِهِ، وإصلاحِ المجتمعِ الجزائريِّ، وبذلَ مجهوداتٍ كثيرةٍ ومُضْنِيةٍ في سبيلِ أَدَاءِ رسالتِهِ العظيمةِ، ولم يَفُتّ في عَضُدِهِ، الاعتقالُ والتَّعذيبُ.

على أنَّ ثَمَّةَ أمْراً آخَرَ، أُريدُ أَنْ أَقولَهُ وهو: أَنَّ كُتُبَ التَّراجِمِ، والسِّيَرِ المطوَّلَةِ، مهما كانَ عندَ مُؤَلِّفيها مِنَ حِسِّ المؤلِّفِ وَشَكِّهِ وَنَقْدِهِ، ومهما كانَ عندهم مِنَ الأمانةِ في سردِ الحوادثِ ودِقَّةِ التَّحري عن الحقائقِ، فإنَّ ذلكَ كُلَّهُ، لا يَجِدُ إقبالاً عليه من القارئينَ العربِ

من أجيالِنا الصَّاعدَةِ، لأنَّ وَقتَهُمُ الزَّاخِرَ بمواد دِرَاسِيَّةٍ، وبأعمالٍ مَعِيْشِيَّةٍ، لا يَسْمَحُ لهم بالتَّفرغِ لقراءةِ مثلِ هذه المجلَّدات، لذا كان لا بُدَّ من القيامِ بكتابةِ سيرةِ كُلِّ عظيمٍ، بأُسلوبٍ سَهْل مشوِّقٍ، مُخْتَصَرٍ غيرِ مُمِلٍّ، تُعطِي صُورةً واضحةً لمختلفِ نَواحي حياتِهِ، الدينيةِ، والأدبيةِ، والسياسيةِ، لكي يُفيدَ منه فتيانُ العربِ، وفَتَياتُهُمْ، في هذه الظُّروفِ المصيريَّةِ، التي تَعيشُها أُمَّتُنَا العربيَّةُ.

ولا أزعم، أني فيما كتبت، قد حققت هذه الأمنية، أو أني قد ألممت بكل ما يتعلق بسيرة الشيخ الجليل، فالكمال لله وحده، بيد أني ـ على كل حال، أرجو أن أكون قد وفقت في دراسته ضمن الإطار المرسوم مسبقاً لهذه السلسلة الجديدة من الكتب الثقافية المخصصة للناشئة في الوطن العربي الكبير.

أخذ الله بيدنا لما فيه خير العروبة والإسلام، والله تعالى من وراء القصد، وهو وليّ التوفيق.

عادل نويهض

بيروت، يوليو (تموز) ١٩٨٦

* * *



الفصل الأول

بِيئته وَنَشْأتُهُ

«يَموتُ العُظماءُ فلا يَنْدَثِرُ منهم إلاّ العُنْصُرُ التُّرابِيُّ الذي يَرْجِعُ إلى أَصْلِهِ، (الأَرْضِ)، وتَبْقَى معانِيهُمُ الحيَّةُ قُوَّةً تُحَرِّكُ، وروابطَ تَجْمَعُ، ونُوراً يَهْدِي، وعِطْراً يُنْعِشُ».

محمد البشير الإبراهيمي

* * *

كان الإمامُ محمد البشير الإبراهيمِيُّ، من الرِّجالِ القلائلِ الذينَ جَمَعُوا بينَ العبقريَّةِ والعَظَمةِ.

هناكَ فارقٌ كبيرٌ بينَ الرجلِ العبقريِّ، والرَّجلِ العظيمِ.

فنوبلُ مثلاً، مُخترع الديناميت (سنة 1866م)، كانَ بلا شَكٌ عبقريّاً، ولكنَّهُ حينَ اخترعَ هذه المادَّةَ المتفجرةَ الرَّهيبةَ، لم يَأْبَهْ بِأرواحِ الملايينِ من البشرِ الذينَ أُزْهِقَتْ أَرْوَاحُهُمْ بعدَ استخدامِ البارودِ في الحروبِ، مما عادَ على (ألفريد نوبلْ) بثروةٍ ماليَّةٍ هائلةٍ، وقد أَنَّبَهُ ضَميرُهُ، قُبيلَ موتِهِ، فَرَصَدَ الْجُزءَ الأكبرَ من ثَرْوَتِهِ يُمْنَح كجوائزَ سنويَّةٍ، لكلِّ مَنْ يُسْهِمُ في إقرارِ السَّلامِ بينَ البشرِ في العلومِ والآدابِ والفنونِ، وهي الجوائزُ التي عُرِفَتْ باسمِ «جوائزِ نوبلْ».

ويمكِنُنَا القولُ: إنَّ (الفريد نوبلْ) كانَ عبقريّاً حينَ اخترَعَ الديناميت، ولكنَّهُ لم يَكُنْ رجلاً عظيماً، لأنه تَسَبَّبَ في إنزالِ وَيْلاتٍ كثيرةٍ بالبشريَّةِ، إلاَّ أَنَّهُ خَتَمَ حَيَاتَهُ كرجلٍ عظيمٍ، حينَ رَصَدَ جُلَّ ثروتِهِ لجوائزِ السَّلامِ.

وما يُقالُ عن (نوبلْ)، يُقَالُ أيضاً عن (أوبنهايمر) الذي أَسْهَمَ في تحويل الطَّاقَةِ النَّووية، إلى قُنْبُلَةٍ شِرِّيرةٍ، تَفْتِكُ بمئاتِ الألوفِ من الناسِ، وهي ما يُسمونَهُ، بالقُنبلةِ الذَّرِّيَّةِ.

إنَّ الشَّخصيَّةَ العظيمةَ هي التي تَسْعَى إلى إسعاد النَّاسِ، وَفقاً لأهدافٍ إنسانِيَّةٍ نَبيلةٍ، ومبادىء مَعنويَّةٍ جليلةٍ.

والرَّجلُ العظيمُ، هو الذي لا يُبالِي بمَظَاهرِ الحياةِ الزَّائفةِ الزَّائلةِ، ويَسْتَمِدُّ سَعَادَتَهُ من إسعادِ غَيرِهِ مِن الناسِ، وهو في ذلكَ يَتَّبِعُ التَّعاليمَ الإلٰهيَّةَ، فَتَكْتَسِبُ رُوحُهُ قَبَساً مِنَ النُّورانِيَّةِ الإلٰهيَّةِ، وَيَجْعَلُ مِنْ مَسْلَكِ رُسُلِ اللَّهِ سُبحانَهُ وتعالى، قُدْوَةً لَهُ.

إنَّ الإمامَ الرَّاحِلَ محمد البشير الإبراهيميَّ، عَرَّفَ العَظَمَةَ تعريفاً رائعاً، في مَقَالٍ نُشِرَ في العدد رقم 151 من مَجَلَّةِ البصائرِ سنة 1951 فقالَ:

«يموتُ العظماءُ، فلا يَنْدَثِرُ منهم إلا العُنْصُرُ التُّرابِيُّ الذي يَرْجِعُ إلى أَصْلِهِ، وَتَبْقى معانيهُمُ الْحَيَّةُ في الأَرْض: قُوَّةً تُحَرِّكُ، وروابطَ تَجْمَعُ، ونُوراً يَهْدِي، وعِطراً يُنْعِشُ: وهذا هو مَعْنَى العَظَمَةِ، وهذا هو كونُ العظمةِ خُلوداً، فإنَّ كُلَّ ما يُخَلِّفُ العُظَماءُ من مِيراثٍ، هو أعمالٌ يَحْتَذِيها مَنْ بَعْدَهُمْ، وَأفكارٌ يَهتدونَ بها في الحياةِ، وآثارٌ مَشْهودَةٌ ينتفعونَ بها، وَأمجادٌ يَعتزُّونَ بها ويَفْخَرونَ».

ويَتَحَدَّثُ بعدَ ذلكَ الإمامُ البشيرُ، عن عَنَاصِرِ العَظَمَةِ الحَقَّةِ فيقولُ:

«والعَظَمَةُ الحَقَّةُ، عَظَمَةُ الخيرِ والجمالِ، والنَّفْعِ، مُسْتَمَدَّةٌ عَنَاصِرُها الأُولى من ينابيعِ النُّبوةِ التي هي مثالٌ لتصفيةِ النفسِ: من كثافةِ المادةِ، وكُدورةِ الأَثَرةِ، فهي متصلةٌ باللهِ تعالى، شَعَرَ البشرُ بذلكَ أم لم يَشْعُروا، واعترفُوا بالألوهيةِ أم جَحَدُوا، فكلُّ عظيمٍ أَفَادَ وَهَدَى وَنَفَعَ وأَسْعَدَ، فهو سائرٌ على قَدَمِ النبوَّةِ.. أو هو حواريٌّ، لمستْ روحَهُ شرارةٌ من قَبَسِ النُبُوَّةِ، وَمَنْ وَزَنَ العظمةَ بهذا الميزانِ، ذَادَ عن حياضِها أبالسةَ الشرِّ من عظماءِ القُوَّةِ والطُّغيانِ، الذين ظَلموا العظمةَ، فاقترضُوها ثُمَّ فَرَضُوها، وعظماءُ العصبيَّاتِ الجنسيَّةِ المحدودةِ، الذين ضاقُوا عن العظمةِ فضاقَتْ منهم، فكلُّ هؤلاءِ يَشيلُ بهم ميزانُ الخيرِ الدَّقيقُ، وإنْ رَجَحَ بهم ميزانُ الخُبْزِ والدقيق».

هذا ما قالَهُ الإمامُ الراحلُ عنِ العظمةِ، وكانَ ـ رضوانُ اللهِ عليه ـ صادقَ القلمِ، والكاتَبَ الذي يُوصَفُ بأنه صادقُ القلمِ هو الكاتبُ الذي يُعبِّرُ قلمُهُ عمَّا يَختلِجُ به قلبُهُ وضميرُهُ من آراءٍ وأحاسيسَ، إذ إن الكثيرينَ يَتَّخذونَ من مهنةِ الكتابةِ وسيلةً للإشادةِ بأفكارٍ ومبادىء لا يؤمنونَ بها.

وهذه الفِقرةُ التي ذكرناها عنِ العظمةِ، وكتبها الإمامُ الرَّاحِلُ،

تُظهِرُ لنا بجلاء لا لَبْسَ فيه مَدَى تمكُّنِ الإمامِ من اللُّغةِ العربيةِ، وأسلوبَهُ الذي يَجمعُ بينَ الجَزَالَةِ والعُمقِ والسَّلاسةِ.

والإلمامُ باللغةِ العربيةِ، كانَ مرحلةً هامَّةً وخطيرةً من مراحلِ جهادِ الجزائرِ في سبيلِ التحريرِ، إذ إن المستعمرَ عَمَدَ إلى وسائلَ شيطانِيَّةٍ، لا تَكَادُ تَقَعُ تحتَ حَصْرٍ ليمنعَ الجزائريينَ مِنَ الإلمامِ بلغةِ العربِ، أو بمعنًى أدَقَّ: لغةِ القرآنِ الكريمِ، وذلكَ سَعْياً وراءَ إهدارِ عُروبتِهِمْ وقوميَّتِهِمْ، وقطعِ الصِّلةِ بينهم وبينَ الدِّينِ الإسلاميِّ الحَنيفِ.

إنَّ جميعَ الأقطارِ العربيةِ، وَقَعَتْ بينَ مخالبِ الاستعمارِ والمستعمرينَ، ثم تَخَلَّصَتْ بعدَ ذلك من نِيرِ الاستعمارِ، ولكنَّ تحريرَ الجزائرِ لم يكنْ مَقصوراً على مقاومةِ الغزوِ الاستعماريِّ المسلَّح، فقد كانَ على أبطالِ الجزائرِ أن يُحارِبُوا الغزوَ الفكريَّ.

وسنتحدَّثُ عنِ مَضمونِ الغزوِ الفكريِّ في فصلٍ لاحِقٍ من هذا الكتاب.

* * *

ومن أوجهِ الخِلافِ الكثيرةِ، بينَ العبقريةِ والعظمةِ، أنَّ العبقريةَ لا تُورثُ، فلقد ثَبَتَ بالاستقراءِ أنَّ عدداً كبيراً من العباقرةِ انْحَدَرُوا من أُسرٍ لا يوجدُ فيها أو في جذورِها عبقريٌّ واحدٌ، ولكنَّ العظمةَ الخُلقيَّةَ من الممكنِ أنْ يتحكَّم فيها عنصرٌ مزدوجٌ: يجمعُ بينَ عنصرِ الوراثةِ وعنصرِ البيئةِ.

لقد انحدرَ الإمامُ محمد البشير الإبراهيميُّ من أسرةٍ كريمةِ المَحْتِدِ، يتحلَّى جميعُ أفرادِها بالإيمانِ العميقِ باللهِ سُبْحانَهُ وتعالى، ويجعلونَ من سُنَّةِ نبيِّ الإسلامِ محمدٍ، عليه وعلى آلِهِ وصحبِهِ الصلاةُ والسلامُ هَدْياً لهم.

والإمامُ الرَّاحلُ سليلُ قبيلةٍ، كانَ لها شَأْنُها العظيمُ، وهي قبيلةُ (ريغةَ) التي اشتهرت بقبيلةِ (أولاد إبراهيمَ)، ولعلَّ ذلك هو سَبَبُ لَقَبِ «الإبراهيميّ».

وُلِدَ الإمامُ البشيرُ في «قصر الطير» بدائرة (سطيفَ)، وهي قريةٌ تَقَعُ على مَقْرُبَةٍ من بلدةِ (رأسِ الوادِي)، وكانَ مَوْلِدُهُ في فجرِ يومِ الخميسِ في الثالثَ عَشَرَ من شهرِ شوَّالَ سنةَ 1306 هجريَّةً، ويوافِقُ الرابعَ عَشَرَ من شهرِ يونيو ـ حزيرانَ ـ سنةَ 1889 ميلاديَّةً.

ومن عجائِبِ الْمُصادَفَاتِ أنه انتقلَ إلى الرفيقِ الأعلى في يومِ الخميسِ أيضاً، والمعروفُ أنَّ النبيَّ ﷺ وُلِدَ في يومِ الاثنينِ واختارَ جوارَ ربِّهِ يومَ الاثنين كذلك. وقد ولد الملكُ العظيمُ الراحلُ فيصلٌ ابن عبد العزيز يومَ الثلاثاء وصَعَدَتْ روحُهُ إلى بارِئِها يومَ الثلاثاءِ أيضاً.

والإمام الراحلُ يَرْجِعُ نَسبُهُ إلى إدريسَ بنِ عبداللهِ، الجدِّ الأوَّلِ للأشرافِ الأدارسةِ، وكانُوا يُسمونَهُ إدريسَ الأكبر، وتَرْجِعُ إليه أنسابُ جميعِ الأشرافِ الحسنيينَ في المغربينِ: الأقصى والأوسطِ.

وكانَ أبوه من الوطنيينَ المناوئينَ للاستعمارِ الفرنسيّ، ولقدِ اضطهَدَهُ المستعمرونَ مما اضطرَّهُ إلى مغادرةِ الجزائرِ والهجرةِ إلى المدينةِ المنوَّرةِ، تاركاً ابنَهُ بَطَلَ هذا الكتابِ وهو في السادِسَةَ عَشْرَةَ من عمره.

ولكنَّ والدَ الإمامِ بشيرٍ، كان واثقاً وهو يُغَادِرُ الجزائرَ، من أنه تركَ ابنَهُ تحتَ رعايةٍ أمينةٍ مؤمنةٍ..

وكان الشيخُ محمد المكّيُ - عَمُّ البشيرِ - من العلماءِ الأفاضلِ، وكان متبحِّراً في اللغةِ العربيةِ، وحُجَّةً في النحوِ والصَّرْفِ، وعلومِ التفسيرِ.

وكانَتْ ملامِحُ الذكاءِ المتوقِّدِ قد ظهرتْ مُبَكِّرَةً لدى البشيرِ، فأظهرَ منذُ صغَرِهِ ميلاً شديداً لتحصيلِ العلمِ وحباً عميقاً للقرآنِ الكريمِ.

وتوسَّمَ الأبُ والعَمُّ في البشيرِ علاماتِ التَّفَوُّقِ والنُّبوغِ، فتعهَّدَهُ عَمُّهُ.

ولما بَلَغَ البشيرُ الإبراهيميُّ التاسعةَ من عمره كان قد حَفِظَ القرآنَ الكريمَ كله عن ظَهْرِ قَلْبٍ.

وبعدَ ذلك حَفظَ ألفيَّةَ ابنِ مالِكٍ، وألفيةَ ابنِ معطي الجزائريِّ.

وتابَعَ دراسَتَهُ، فاستوعَبَ عدداً كبيراً من الكتبِ الدينيَّةِ والأدبيَّةِ.

وماتَ عَمُّهُ، وكانَ البشيرُ لم يتجاوزْ بعدُ الرَّابعةَ عَشْرَةَ من عمره.

وكان للعمِّ طَلَبَةٌ كثيرونَ يفَدونَ عليهِ لِتَلَقِّي العلمِ، فلما ماتَ، تولّى البشيرُ - رَغْمَ صِغرِ سِنِّهِ - مُهِمَّةَ تَدْرِيسِ هؤلاءِ الطلبةِ.

وهذه العبقريَّةُ المبكِّرةُ، تُشبِهُ إلى حدٍّ كبيرٍ نفسَ المراحلِ التي مَرَّتْ بها عبقريَّةُ الفيلسوفِ العربيِّ الرَّاحِلِ ابنِ سينا.

وكان الإمامُ الراحلُ - شأنُهُ في ذلكَ شأنُ جميع العباقرةِ - يتمتَّعُ بذاكرةٍ قويَّةٍ، فكانَ سريعَ الحِفْظِ، بطريقةٍ تُثيرُ الدَّهشةَ والعَجَبَ.

ولَبِثَ البشيرُ يُمارسُ مهنةَ التَّدريسِ حتى بلغَ العشرينَ من عمره.

كان قدِ اطَّلَعَ على كلِّ ما كَانَ في الجزائرِ وقتئذٍ من كتبٍ، أو مراجعَ عِلميَّةٍ، ولم يَقْنَعْ بما كَانَ عليه من عمقِ الثقافةِ وَسَعَةِ الاطِّلاعِ، إذ إنَّ طالب العلمِ يكون دائماً مَنْهوماً، كما قال الرَّسولُ ﷺ. إذ إن العالِمَ يظلُّ عالِماً ما تَعَلَّمَ، فإذا ادَّعى أنه ألمَّ بما في هذا الكونِ من علومٍ فقد جَهِلَ.



غادرَ البشيرُ الجزائرَ سنةَ 1911 ميلاديَّةً، وكان في العشرينَ من عمره.

كانتْ وجهَتهُ المدينةُ المنَّورةُ، فقد سَمِعَ أن بها ثلاثةً من فطاحِلِ العلماءِ: هم الشيخُ عبدُالعزيزِ الوزيرُ، والشيخُ محمود الشنقيطيُّ، وكان من أفذاذِ اللغةِ العربيةِ، والشيخُ حمدانٌ الونيسيُّ القسنطينيُّ وكانَ من المتبحرينَ في علومِ التفسيرِ.

وفي طريقهِ إلى المدينةِ المنوَّرةِ، مرَّ بمدينةِ القاهرةِ عاصمة مِصْرَ.

واضطرَّهُ حُبُّهُ للعلمِ أن يؤخِّرَ سَفَرَهُ إلى المدينةِ المنوَّرةِ، لأن سَمِعَ بوجودِ نُخبةٍ ممتازةٍ من العلماءِ والأدباءِ والشُّعراءِ في عاصمة مِصْرَ.

وأقامَ البشيرُ في القاهرةِ ثلاثةَ أشْهُرٍ قَضاها في العلمِ والتحصيل، وجالَسَ وناقَشَ عدداً كبيراً من علمائِها وأدبائِها، كالشيخِ سليم البشري الذي كان شيخاً للأزهرِ الشريفِ في ذلك الوقتِ، والشيخ محمد بخيت، والشيخ يوسف الدجوي.

وكانت له جَلَساتٌ ومُساجلاتٌ مَعَ أميرِ الشعراءِ أحمد شوقي، وشاعرِ النيلِ حافظَ إبراهيم رَحِمَهما اللهُ.

* * *

إن الثورةَ العظيمةَ التي تَفَجَّرتْ في الجزائرِ في أولِ نوفمبر- تشرين الثاني - سنةَ 1954 ميلاديَّةً، خَطَّطَ لها أبطالُ الجزائرِ بحكمة عظيمةٍ، وبُعْدِ نَظَرٍ ثاقبٍ قبلَ تفجُّرِها بمدةٍ طويلةٍ.

وكانَ نشاطُ الإمام محمد البشير الإبراهيميّ من أهَمّ الأركان والعُمدِ الرئيسيةِ في هذا التخطيطِ الحكيمِ.

ولا يتَّسِعُ هذا المجالُ لكي نُعدِّدَ أوجُهَ نشاطِ الإمامِ الراحلِ في هذا الصَّدَدِ.

لَقَدِ اتَّخَذَ من مدينةِ القاهرةِ مركزاً لتوجيهِ نشاطِهِ الوطنيِّ العظيمِ، وإلقاءِ الأضواءِ الكاشفةِ على جهادِ الشعبِ الجزائريِّ البَطلِ، وإسهامِ علماءِ الإسلام في ذلكَ الجهادِ إسهاماً كبيراً.

ولقد سجَّلَ المؤتمرُ الذي عُقِدَ في الصّومامِ لعلماءِ الجزائرِ، هذا الجهادَ المقدَّسَ، فقال في البيانِ الختامِيِّ الذي أصدَرَهُ عَقِبَ انتهاءِ أعمالِ المؤتمرِ:

«أمَّا العلماءُ الجزائريونَ، فقد تَقَدَّمُوا بكلِ شجاعةٍ إلى الميدانِ من أولِ لحظةٍ».

وفي أثناءِ وجودِ الإمام البشيرِ في القاهرةِ خِلاَلَ هذه الفترة من جِهادِهِ، انتُخِبَ عُضواً بمجمع اللغةِ العربيةِ، وكان من قبل ذلكَ، قد أُنتخِبَ عُضواً بالمجمعِ العلميِّ بمدينةِ دمشقَ، والمجمعِ العلميِّ بمدينةِ بغدادَ.

انبهرَ علماءُ مِصْرَ وأفاضِلُها وأدباؤُها بشخصيَّةِ الإمامِ الفَذَّةِ، وبعلمِهِ الواسعِ، وبِتَبَحُّرِهِ الذي لا نَظيرَ له في اللغةِ العربيةِ، وعلومِ التفسيرِ، والفِقْهِ الإسلاميِّ.

وعُقِدَتْ للعالِمَ الجليلِ النَّدَواتُ التي كانَ يُلقِي فيها خُطَبَهُ الرَّنَّانَةَ.

وكان الإمامُ الشيخُ البشيرُ من أعظمِ الخطباءِ، فكان يَمْلِكُ قُلوبَ المستمعينَ، ويتحكَّمُ في مشاعِرِهِمْ، وينتقلُ في خَطَابَتِهِ، من موضوعٍ

إلى موضوعٍ، في لباقةٍ أخّاذةٍ، ولا يَنْسى أبداً الدَّعوةَ لمؤازرةِ الشعب الجزائريِّ البَطَلِ في جهادِهِ المقدَّسِ ضِدَّ الاستعمارِ.

وفي إحدى هذه النَّدواتِ وَقَعَ حادثٌ طريفٌ، له دَلالَتُهُ العظيمةُ.

كان الإمامُ الرَّاحلُ يُلقي إحدى خُطَبِهِ، وكان بينَ المستمعينَ عددٌ كبيرٌ من أئمةِ الأدباءِ المصريينَ، منهُمُ المرحوم الفيلسوفُ الدكتورُ منصور فهمي، وهو أستاذُ كُلٍّ من الدكتور طه حسين، والدكتور زكي مبارك، وغيرهِما من كبارِ الفلاسفةِ والأدباءِ الذين ما زالَتْ تَعْتَزُّ بِهِمُ العروبةُ.

كان الجميعُ يستمعُونَ إلى الإمامِ البشيرِ في إعجابٍ استحوذَ على عقولِهِمْ ومشاعِرِهِمْ.

وما كاد ينتهي الإمامُ الراحلُ من إلقاءِ كلمتِهِ، حتى نهضَ الدكتورُ منصور فهمي، وخَلَعَ حِذَاءَهُ، وَأَمْسَكَهُ بِيَدَيهِ، والتفتَ إلى الجميعِ قبلَ أن يخطوَ نحوَ المِنبرِ الذي كَان يَخْطُبُ من فوقِهِ الإمامُ البشيرُ، وقالَ لهم بصَوْتٍ عالٍ:

ـ لقد نَزَعْتُ حِذائي لكي أتقدَّمَ إلى المِنبرِ الذي يَقِفُ عليه الشيخُ الجليلُ، لأني أعتبرُ هذا المِنبرَ ساحةً مقدسةً ينبغي أن يدخلَها الناسُ كما يدخلونَ الْحَرَم أو أيَّ مَسْجِدٍ آخَرَ.

وصَفَّقَ الموجودونَ للدكتورِ منصور فهمي تصفيقاً حارّاً حينَ سَمِعُوا منه ذلك، وكأنه عَبَّرَ بقولِهِ هذا عما كانَتْ تَجيشُ به نفوسُهم.

وأضاف الدكتورُ منصور فهمي يقولُ:

- إني لم أسمعْ ولم أرَ في حياتِي مَنْ هو أفصحُ أو أبلغُ من الشيخِ البشيرِ، وإني أدعو جميعَ العلماءِ والأدباءِ في الوطنِ العربيِّ إلى أن يُلْقُوا إليه بمقاليدِ اللغةِ والبيانِ.

ثمَّ التفتَ الدكتورُ منصور فهمي نحوَ الإمامِ الشيخِ محمد البشير الإِبراهيمي وقال له:

- أنتَ مَلِكُ اللغةِ العربيةِ في هذا العصرِ، لقد ملكتَ كافَّةَ نَواصيها.

وكان الأديبُ الكبيرُ كامل كيلاني موجوداً في النَّدوةِ، فاستبدَّ به الحماسُ لِمَا سَمِعَهُ من الدكتورِ منصور فهمي، واتَّجَهَ نحوَ الإمامِ العظيمِ، باسطاً يَدَهُ إليه وهو يقول له:

- إني أوَّلُ مَنْ يُعلنُ مُبَايَعَتَهُ لكَ كَمَلِكٍ لِلُّغةِ العربيةِ في عصرِنا هذا.

وقد شارك الإمامُ الراحلُ في عددٍ كبيرٍ من المحافلِ العلمية، والمهرجاناتِ الأدبية.

ذلكَ عَلاوةً على العدِ الضَّخْمِ مِنَ المقالاتِ التي كان يَنشُرُها في مختلِفِ الصُّحُفِ، والمجلاَّتِ العربيةِ معرِّفاً فيها بجهادِ الشعبِ الجزائريِّ ضِدَّ الاستعمارِ، إلى جانبِ بُحوثِهِ العلميَّةِ العميقةِ.

الفصل الثاني

اللِّقاءُ العظيم

«التقَى الرَّائِدانِ العظيمانِ في لحظةٍ رَتَّبَتْها العِنَايَةُ الإِلٰهيَّةُ، ليكونَ لِقاؤُهُما سَبباً من أهمِّ الأسبابِ التي مَهَّدَتْ لِتفجيرِ ثورةِ الجزائِرِ الكُبْرى».

* * *

كانَ لقاءُ الشيخينِ الجليلينِ عبدِالحميدِ ابنِ باديس ومحمد البشيرِ الإِبراهيميّ، لقاءً تاريخياً عظيماً.

وقد شاءَتْ إرادةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى أن يكونَ لقاؤُهُما في مكانٍ مُقَدَّسٍ ليرسُما خُطَّةَ العملِ من أجلِ الجهادِ المقدسِ لِنُصرةِ الشعبِ الجزائريّ.

لقد التقيا في رحابِ الْحَرَمِ الشَّريفِ..

كان لقاؤُهُما في الأراضِي المقدسةِ، هو أولَ لقاءٍ يَتِمُّ بينَ هذينِ الرجلينِ العظيمينِ، على الرَّغْمِ من أَنَّهما كانَا يَنتميانِ إلى وطنٍ واحدٍ، ويُجاهدانِ في ميدانٍ واحدٍ، هو مَيدانُ العلمِ.

قد يَبْدُو ذلكِ مُستغرَباً لأولِ وهلةٍ، ولكن ظروفَ الحياةِ التي مرَّتْ بكلٍّ منهما حالتْ دونَ تلاقيهما في الجزائرِ بادىءَ ذي بَدْءٍ.

كان أحدُهُما في مدينةِ (بجايَةَ) والآخَرُ في مدينةِ (قسنطينَة)، وكان كلٌّ منهما مشغولاً بِتَلَقِّي العلمِ، وتعليمِ الطلابِ في نفسِ الوقتِ.

كان الشيخُ الجليلُ عبدُالحميدِ بنُ باديسَ قد رحلَ إلى تونسَ الخضراءِ، ليكمِّلَ تعليمَهُ في جامعِ الزيتونةِ، وكان جامعُ الزيتونةِ في ذلك الوقتِ من أعظمِ وأكبرِ المراكزِ العلميَّةِ في شمالِ أفريقيا.

أما الإمامُ البشيرُ الإبراهيميُّ، فإنَّ زيارتَهُ الأولى لمدينةِ القاهرةِ، استمرتْ ثلاثةَ أشهرٍ قضاها في لِقاءِ كبارِ عُلمائِها وأدبائِها وشعرائِها كما ذَكَرْنَا، ثم رحلَ بعدَ ذلك إلى المدينةِ المنوَّرةِ، حيثُ كان يُقيمُ المغفورُ له والدُهُ، الذي تركَ الجزائرَ بعدَ أنْ لاقَى الأمرَّينِ من عَنَتِ واضطهادِ المستعمرِ.

وفي المدينةِ المنوَّرةِ تابَع الإمامُ البشيرُ دِرَاسَتَهُ فَعَكَفَ على دِرَاسةِ كتابِ (الموَّطأِ) للإمامِ مالكٍ، دراسةً تحليليةً عميقةً، كان يُعاونُهُ فيها أحدُ علماءِ المدينةِ المنوَّرةِ، وهو المرحوم الشيخُ الوزيرُ التونسيُّ.

وكان في نفسِ الوقتِ يُتابعُ دراسةَ الأحاديثِ النبويَّةِ الشريفةِ، فحفظَ عن ظَهْرِ قلبِ (صحيحَ مُسْلِمٍ)، وكانَ يُعاونُهُ في ذلكَ عالِمٌ هِنديٌّ من كبارِ علماءِ المسلمينَ، وهو المرحوم الشيخُ حسين أحمد الفَيْض أبادي.

ولم تَقتصِرْ مجهوداتُهُ العلميَّةُ على ذلكَ فَحَسْبُ، بل كَانَ يَذْهَبُ إلى المكتباتِ العلميَّةِ في المدينةِ المنوَّرةِ، ويستوعبُ كُلَّ ما كَانَ فيها من مخطوطاتٍ علميَّةٍ نفيسةٍ.

وكانَ الإمامُ البشيرُ يَفْتَحُ أبوابَ دَارِهِ لطلابِ العلمِ، فَيُفيضُ

عليهم بدروسِهِ القَيِّمةِ في التفسيرِ والحديثِ، والفِقْهِ والأنسابِ واللغةِ والمنطقِ وغيرِ ذلكَ من بحرِ عِلْمِهِ الزَّاخِرِ.

ورحلَ عبدُالحميدِ بنُ باديسَ إلى الأراضِي المقدَّسَةِ، وزارَ المدينةَ المنوَّرةَ، لزيارة مسجد الرسولِ عليه وعلى آلِهِ وصحبِهِ الصلاةُ والسَّلامُ.

والتَقَى الرجلانِ الرائدانِ العظيمانِ في لحظةٍ رَتَّبَتْها العِنايةُ الإلهيَّةُ، ليكونَ لقاؤُهُما سبباً من أهمِّ الأسبابِ التي مَهَّدَتْ لتفجيرِ ثورةِ الجزائرِ الكبرى، وانتصارِها الرَّائِعِ المجيدِ على المستعمِرِ، وصَيرورتِها بعدَ ذلكَ من أقوى وأعظمِ الدولِ في الأمَّةِ العربيَّةِ.



لقد لَبِثَ هذا اللقاءُ التاريخيُّ ثلاثةَ أشهرٍ ـ وهي المدَّةُ التي قَضاها الشيخُ عبدُالحميدِ ابنُ باديسَ، في المدينةِ المنوَّرةِ.

إلاَّ أنَّ الأعمالَ العظيمةَ لا تُقاسُ قيمتُها بالأيامِ أو بالشهورِ التي يَقضيها الإنسانُ في رَسْمِ مُخَطَّطاتِها، والتحضيرِ لها.

كانتْ هذه الأَشْهُرُ الثلاثةُ من أثمنِ الفَتَرَاتِ في تاريخِ تحريرِ الجزائرِ وجهادِها المقدسِ.

ولا عَجَبَ، فقد باركَ الله سُبحانَه وتعالى لِقاءَ هذينِ البطلينِ الجليلينِ، وأَلْهَمَهُما السَّدَادَ والتوفيقَ في كلِّ الخططِ التي رسماها من أجلِ النُّهوضِ بوطنِهما وإنقاذه من براثنِ الاستعمارِ، باركَهُما اللهُ عَزَّ

وجلَّ وهما يلتقيانِ في تلكَ البقعةِ المقدسةِ المباركةِ من الوطنِ العربيِّ الكبيرِ.

كانا يلتقيانِ كلَّ ليلةٍ في المَسْجِدِ النَّبوي الشريفِ، ويؤدِّيانِ سويةً صلاةَ العشاءِ، ثم ينصرفانِ بعدَ ذلكَ من المَسْجِدِ الطاهِرِ إلى دارِ الإمامِ الشيخِ محمدٍ البشيرِ الإبراهيمي، ويقضيان الليلَ بطولِهِ في مناقشةِ الوضعِ في وطنِهما الجزائرِ، من مختلِفِ النَّواحِي السِّياسيةِ والدينيةِ والاجتماعيةِ، حتى ينتبِها إلى بزوغِ أولى أشِعَّةِ الفجر، ويتوجَّهانِ إلى المسجدِ النبويِ الشريفِ ليؤدِّيا صلاةَ الفجرِ، وهما يدعوانِ الله العزيزَ القديرَ أن يبزغَ في الجزائرِ الحبيبةِ فجرُ الحريةِ والكرامةِ والاستقلال..

كيفَ لا يَستجيبُ اللهُ تعالى إلى دعائِهما النابعِ من قلبيهما الطاهرينِ وهما في تلك البقعةِ المباركةِ الطاهرةِ...؟

في هذا اللقاءِ الخالدِ بينَ البطلين العظيمينِ تَمَّ التفكيرُ في إنشاءِ (جمعيةِ العلماءِ المسلمينَ الجزائريينَ)، التي تَمَّ إنشاؤُها بعدَ ذلك في سنةِ 1931 ميلاديَّةً.

وقد لَعِبَتْ هذه الجمعيَّة دَوْراً بُطولياً خالداً في التمهيدِ لتفجُّرِ ثورةِ الجزائرِ العظيمةِ، وسنُفْرِدُ لهذه الجمعيَّة فَصْلاً خاصّاً في هذا الكتابِ، إذ إنها من الملامِحِ البارزةِ المضِيئةِ في تاريخِ الجزائرِ.

* * *

وقامَ الشريفُ حسينُ بنُ عليٍّ بثورتِهِ المعروفةِ، فأمَرَتْهُ الحكومةُ العثمانيَّةُ بإجلاءِ سكانِ المدينةِ المنوَّرةِ كُلِّهم إلى مدينةِ دمشقَ!

كانَ عَدَدُ المهجَّرينَ يزيدُ عنِ الثمانينَ ألفاً، وكان من بينِهِمُ الإمامُ محمد البشير الإبراهيميُّ ووَالِدُهُ.

أما الشيخُ عبدُ الحميدِ بنُ باديسَ، فكان قد رَحَلَ قبلَ ذلكَ عائداً إلى وطنِهِ الجزائرِ، لكي يبدأَ فَوْراً في تنفيذِ الأفكارِ والمخطَّطاتِ التي رَسَمَهَا مَعَ الإمامِ البشيرِ إبَّانَ لِقائِهما في المدينةِ المنوَّرةِ.



إنَّ نُورَ العلمِ لا يَخْفَى، ولو حَرَصَ الجاهلُونَ على حَجْبِهِ وإخفائِهِ، ولا سيَّما إذا كان هذا العلمُ قَبَساً من نورِ اللهِ سبحانَه وتعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

[صدق الله العظيم]

ما كانَ الإمامُ البشيرُ يَستقرُّ في حاضرةِ الشامِ، حتى تنافستِ المدارسُ المختلفةُ للفوزِ به كأستاذٍ يُلقِي المحاضراتِ على طَلَبَتِها.

واحتفى بِهِ علماءُ مدينةِ دمشقَ احتفاءً عظيماً، وَطَلَبُوا منه إلقاءَ دروسٍ في الوعظِ والإرشادِ في الجامِعِ الأُمويِّ لمناسبةِ حلولِ شهرِ رمضانَ المعظَّمِ.

وكانتْ مواعظُ الإمامِ الراحلِ مصوغةً في أسلوبٍ متطوّرٍ، يَتَناسبُ مَعَ رُوحِ العصرِ، ولا يَتقيَّدُ بالتعقيداتِ اللفظيةِ، التي كانتْ تَتَّسِمُ بها الخُطَبُ الدينيةُ، مما يَحْمِلُ المستمعينَ على المَلَلِ، لذلك أقبل الناسُ إقبالاً شديداً على الاستماعِ إلى المواعظِ التي كان يُلقيها الإمامُ البشيرُ.

وكانَ الإمامُ البشيرُ خِلالَ هذه المرحلةِ من جِهَادِهِ العلميّ، يُشبِهُ البطلَ الجزائريَّ الأميرَ عبدَالقادِرِ، الذي ذهبَ هو الآخرُ إلى مدينةِ دمشقَ، وكانتْ له فيها صَوْلاتٌ وجَوْلاتٌ علميَّةٌ متألِّقَةٌ.

ومما تَجْدُرُ بنا الإشارةُ إليه، أنَّ عَمَّ الإمامِ البشيرِ، الشيخَ محمداً المكّيَّ، الذي كانَ أستاذاً للإمامِ في صِغَرِهِ، كان هذا العَمُّ الجليلُ من المتشبعينَ بمدرسةِ الأميرِ عبدِ القادرِ الجزائريِ، ومن أشدِّ المُعْجَبِينَ بعلمِهِ وجهادِهِ المقدسِ، وما من شكٍّ في أنه تَحَدَّثَ كثيراً عن بطولةِ الأمير الراحل، فالمربِّي الأمينُ يَتَحَدَّثُ دائماً عن سِيَرِ العظماءِ إلى تلاميذِهِ، حتى يُحَرِّكَ فيهِمُ الطُّموحَ والسَّعيَ إلى الاقتداءِ بهؤلاءِ العظمَاءِ.

ودالتْ دولةُ العثمانيينَ وخَرَجُوا من مدينةِ دمشقَ، فسارعت الحكومةُ الوطنيةُ إلى دعوةِ الإمامِ البشيرِ لكي يكونَ أُستاذاً للآدابِ العربيةِ في المدرسةِ الثانويةِ الوحيدة التي كانَتْ في دمشقَ ذلك الوقتِ، وكان اسمُها المدرسةَ السُّلْطَانيَّةَ.

وقد تتَلْمَذَ على يَدَي الإمامِ الرّاحلِ، عَدَدٌ كبيرٌ من أبناءِ الشامِ، الذين أصْبَحُوا فيما بعدُ من طلائعِ وفحولِ العلماءِ، والأدباءِ في الأمةِ العربيةِ، أمثالَ القاضي الشيخ الطنطاويّ، والشاعرِ الحومانيّ وغيرهما.

وقد أقامَ الإمامُ محمد البشير الإبراهيميُّ في مدينةِ دمشقَ حتى سنة 1920 ميلاديَّةً.



رَغْمَ وجودِ الإمامِ الراحلِ خارجَ وطنِهِ، فقد كانَ مشدودًا إلى الجزائرِ بقلبِهِ وعقلِهِ وروحِهِ.

وممَّا قالَهُ البشيرُ الإبراهيميُّ في هذا الصَّدَدِ، وهو يوجِّهُ حديثَهُ إلى الجزائر في أثناءِ وجودِهِ في الخارج.

«لا تَنْسي أنَّني كنتُ لكِ من عَهْدِ التَّمائمِ، إلى عَهْدِ العَمَائمِ[1]، ما شُغِلْتُ عنكِ إلاَّ بكِ، ولا خرجتُ عنكِ إلا عائداً إليك».

«خَطَّتِ الأقدارُ في صحيفتِي أنْ أفتحَ عينيَّ وأنتِ موثقةٌ، فهل في غيب الأقدارِ، أنْ أغمِضَ عينيّ فيكِ وأنتِ مُطْلَقَةٌ؟

«لقد كتبتِ الأقدارُ عليَّ ألاَّ أمْلِكَ من أرضِكِ الطاهرةِ شِبْراً، فهل تَكْتبُ لِيَ أنْ أحوزَ فِي ثَرَاكِ قَبْراً؟».

(1) أيْ أنّه كانَ لوطنِهِ منذُ أنْ كانَ طفلاً صغيراً يَضعونَ له التّمائِمَ اتِّقَاءَ الحَسَدِ، حتى اصبحَ عالِماً يَضَعُ العمامَةَ على رأسِهِ.

لا يوجدُ ما هو أروعُ من ذلك قَولاً!.

ومما لا مِراءَ فيه أنَّ الإمامَ البشيرَ الإبراهيميَّ كان ككُلِّ أولياءِ اللهِ الصالحينَ مُستجابَ الدُّعاءِ نافذَ البصيرةِ، فقد تَحَقَّق ما ذَكَرَهُ في قولِهِ هذا، ولم يُغْمِضْ عَيْنَيهِ في ضَجعتِهِ الأخيرةِ إلا بعدَ أنْ أصبحتِ الجزائرُ حُرَّةً طليقةً، بعد أن كانتْ مستعمرةً.

وتحققتْ أمنيتُهُ، بأنْ ضَمَّ ثَرَى الجزائرِ جُثمانَهُ الطَّاهِرَ.

* * *

الفصل الثالث

الغَزْوُ الفِكْري

«كانَ الاستعمارُ الذي وقعتِ الجزائرُ بينَ براثِنِهِ من أخبثِ ألوانِ الاستعمارِ، لأنه كان يَهْدِفُ إلى مَحْوِ شخصيةِ الشعبِ الجزائريِّ، وإذابَتِهِ في بُوتَقَةِ التَّبعِيَّةِ الفرنسيةِ، وقَطْعِ صلاتِهِ بتاريخِهِ القديم، ودينِهِ الإسلاميِّ، وقوميتِهِ العربيةِ».

* * *

خِلاَلَ الأشهر الثلاثةِ التي استغرقَها اللِّقاءُ التاريخيُّ الخالدُ بينَ الشيخِ عبدِالحميدِ بنِ باديسَ والإمامِ البشيرِ الإبراهيميِّ، في المدينةِ المنوَّرةِ، كانا يدرسانِ ويبحثانِ في مختلِفِ الوسائلِ التي تَنْهَضُ بالشعبِ الجزائريِّ، وتبعثُ في كلِّ فَرْدٍ منه الإيمانَ باللهِ والإيمانَ بِوَحدةِ الوطنِ وقوَّتِهِ وأَصَالَتِهِ.

لقد عَمَدَ المستعمرونَ إلى تَشكيكِ أفرادِ الشعبِ الجزائريِّ في الدينِ الإسلاميِ، وفي صحةِ نبوةِ محمدٍ عليه وعلى آله وَصَحْبِهِ الصلاةُ والسَّلامُ.

وَجَنَّدوا لذلكَ بعضَ معاونيهم من اليهودِ الصَّهاينةِ المعروفينَ بخُبثِهم وعدائِهِمُ الشَّدِيد للإسلام والمسلمينَ.

واستعانَ هؤلاءِ وهؤلاءِ ببعضِ الطوائفِ التي لا خَلاَقَ لها، لترويجِ البدعِ المُسْتَهْجَنَةِ وإيهامِ الناسِ بأنها من أركان الدينِ الإسلاميِّ.

وقدِ اشتدَّ هذا البلاءُ بادىء الأمرِ في المناطقِ الغربيَّةِ من بلادِ الجزائرِ.

وبلغَ من جراْةِ المستعمرينَ أنهم صارُوا ينشرونَ هذه البدعَ السقيمةَ ويُؤكدونِ أن هذا هو «الإِسلامُ الجزائريُّ الصحيحُ»! كما أسْمَوْهُ.

ولما كانتِ اللغةُ العربيةُ هي اللغةَ التي أُنْزِلَ بها القرآنُ الكريمُ، فقد عَمَدُوا إلى مُحاربتها، وجعلِ اللغةِ الفرنسيةِ اللغةَ الرسميةَ والشعبيةَ.

وكان المستعمرونَ يلاحقونَ كلَّ من يُحاوِلُ تعليمَ اللغةِ العربيةِ، ويضطهدونَهُ ويُنزلونَ بِهِ أقسى ألوانِ العِقَابِ.

لقد أدركَ الرَّائدانِ العظيمانِ أنَّ حَرْبَ المستعمِرِ يَجِبُ أن تَبدأ أولاً بالعمل على إحباطِ وسائلِهِ الخبيثةِ التي كان يَتَّبِعُها لِغَزْوِ عقولِ وأفكارِ الجزائريينَ لزعزعةِ إيمانِهِمْ بدينهمُ الإسلاميِّ وعروبَتِهِمْ.

* * *

إذا نحنُ أرَدْنا الحديثَ عن الإمام محمد البشير الإبراهيميّ، فلا بُدَّ لنا مِنَ الإشادةِ ببطولةِ الشيخِ عبدِ الحميد بِن باديسَ أسكنَهُ اللهُ فسيحَ جِنانِهِ، ذلك لأنَّهما كانا تَوأمي جهادٍ واحدٍ.

إن الشيخَ عبدَالحميد بنَ باديسَ بعد أن أنْهَى تعليمَهُ في (الزيتونةِ)، وتخرَّج بشهادة التطويع (1911 ـ 1912م) عادَ إلى بَلَده قُسَنْطِيْنَةَ فَدَرَّسَ بجامعها الكبير، وحاكَ أعداؤُهُ المكائدَ ضدَّهُ، فرحَلَ

إلى المَشْرِقِ، والتقى في رِحْلَته بعددٍ كبيرٍ من العُلَمَاءِ ورِجَالِ الأدَبِ والفِكْرِ في الدِّيارِ المصْرِيَّة.

وبعدَ ذلكَ سافَرَ إلى مَكَّةَ المكرَّمةِ، وقابلَ الكثيرينَ من أئمةِ العلمِ فيها.

ولقد سَبَقَ لنا أن وصَفْنا ذلك اللقاءَ التاريخيَّ الذي تَمَّ بينَ الرَّائدينِ العظيمينِ: الشيخ عبد الحميد بِن باديسَ والإمامِ محمد البشير الإبراهيميِّ، وكيفَ خطَّطا في هذا اللقاءِ لإنشاءِ (جمعية العلماءِ المسلمينَ الجزائريِينَ) مُستخدِمِينَ في ذَلِك سِلاحاً من أمْضَى الأسلحةِ، وأشدِّها فَعالِيَّةً في ذلك الوقتِ، وهو سلاحُ نَشْرِ العلومِ الإسلاميةِ بينَ أفرادِ الشعبِ الجزائريِّ المناضل، والعملَ على اعتزازِهِ بلغَتِهِ الأصيلة، لُغتِهِ التي أُنزلَ بها القرآنُ الكريمُ، وهي اللغةُ العربيةُ.

لقد عادَ الرَّائدُ الشيخُ عبدُالحميد بنِ باديسَ إلي وطنِهِ الجزائرِ في سنة 1913 ميلاديَّةً.

عادَ ذلكَ الرجلُ العظيمُ إلى الجزائرِ ليتحدَّى الاستعمارُ الفرنسيَّ بشجاعةٍ لا نَظيرَ لها: شجاعةِ المؤمنِ باللهِ والمؤمِنِ برسالتِهِ العظيمةِ.

كان الاستعمارُ الفرنسيُّ قد ألغَى تدريسَ اللغةِ العربيةِ في المدارس، واعتبرَ اللغةَ الفرنسيةَ هي اللغةَ الرسميةَ والشعبيةَ في البلادِ، أما اللغةُ العربيةُ، فقد اعتبرها لغةً مدسوسةً ودخيلةً على الجزائرِ.

واتَّبَعَ المستعمرونَ تلك النظريةَ التي تقولُ: «فَرِّقْ تَسُدْ»، وهي

النظريَّةُ التي تُعتبرُ القاسِمَ المُشْتَرَكَ الأعظمَ لكلِّ المستعمرينَ، ولذلك بدأَ الفرنسيونَ في غَرْسِ بُذُورِ التَّفرِقَةِ بينَ البربرِ وسائرِ أهلِ الجزائرِ.

وَعَمَدَ الشيخُ عبدُ الحميدِ بنُ باديسَ إلى الاتِّصالِ بعددٍ كبيرٍ من الرجالِ الجزائريينَ، الذين كانُوا يُعرَفونَ بالإخلاصِ للوطنِ، ويعتزونَ بدينِهِمُ الإسلاميِّ الحنيفِ، وبلغتِهِمُ العربيَّةِ، وشرح لهم فحوى رسالته السامية، وما رَسَمَهُ هو والإمامُ محمد البشير الإبراهيمي من خططٍ لمقاومة الغزوِ الاستعماريِّ الفكريِّ، بغزوٍ مُضَادٍّ من نفسِ النوعِ.

كانَ من بينِ الذينَ استعانَ بِهِمُ ابنُ باديسَ: الطَّيِّبُ العُقْبي، ومباركٌ الميليُّ، والعربيُّ التَّبِسِّي، وتوفيقٌ المدنيُّ وغيرُهم ممن كان لَهُمُ الفضلُ الأسْنَى في بعثِ روحِ الجهادِ المقدسِ.

وبذلك نَجَحَ هؤلاءِ المجاهدونَ في إنشاءِ مئاتِ المدارسِ التي تُدَرِّسُ اللُّغَةَ العربيَّةَ ومختلِفَ العلومِ الإسلاميةِ.

وللإمامِ الرَّائدِ محمد البشير الإبراهيميِّ مقالاتٌ عديدةٌ وجَّهها إلى الشعبِ الجزائريِّ، سواءٌ من إذاعة صوتِ العربِ بالقاهرةِ، أم من سائرِ الصحفِ العربيةِ التي اتَّخذَ منها مِنبرًا لبثِّ آرائِهِ وتوجيهاتِهِ.

وممَّا قالَهُ الشيخُ الإبراهيميُّ في هذا الصَّدَدِ:

«اللغةُ العربيةُ هي لغةُ الإسلامِ الرسميَّةُ، ولهذه اللغةِ على الأمةِ الجزائريةِ حَقَّانِ أكيدانِ كلٌّ منهما يقتضي وجوبَ تعلُّمِها، فكيفَ إذا اجتمعا؟.. حقٌّ من حيثُ إنها لغةُ دينِ الأمةِ، بحكمِ أن الأمةَ مسلمةٌ،

وحقٌّ لأنَّها لغةُ جنسِها بحكمِ أنَّ الأمةَ عربيةُ الجنسِ، ففي المحافظةِ عليها محافظةٌ على جنسية ودينٍ معاً، ومن هنا نَشَأَ ما نَراه من حِرْص متأصّلٍ في هذه الأمةِ على تعلُّم العربيةِ، وما تَشْهَدُه من مطالبةٍ إجماعيَّةٍ بحريةِ تَعليمِها، وما نُشاهِدُه من قلقٍ واضطرابٍ في أوساطِ الأمةِ لموقفِ الحكومةِ المخجلِ في اللغةِ العربيةِ، وما نَرَاهُ من سُخْطٍ عميقٍ على القوانينِ التي تُعَرْقِلُ تعليمَها، وذلك كلُّه لأنها مفتاحُ الدينِ أو جُزْءٌ من الدين».

وقالَ الإمامُ البشيرُ في مناسبةٍ أخرى يَرُدُّ فيها على ما كانَ يُرَوِّجُهُ المستعمرونَ وأذنابُهم من أنَّ اللغة العربيةَ لغةٌ دخيلةٌ على الجزائر:

«اللغةُ العربيةُ في القطرِ الجزائريِّ ليستْ غريبةً ولا دخيلةً، بل هي في دارِها، وبين حُماتِها وأنصارِها، وهي ممتدَّةُ الجُذُورِ مَعَ الماضِي، مُشْتَدَّةُ التآخِي مَعَ الحاضِر، طويلةُ الأفنانِ في المستقبل.

ممتدَّةٌ مع الماضي لأنها دخلتْ هذا الوطنَ مع الإسلام على أَلْسِنَةِ الفاتحينَ، تَرْحَلُ برحيلهم، وتُقيمُ بإقامتهم. فلما أقامَ الإسلامُ بهذا الشَّمالِ الأفريقيِّ إقامةَ الأبدِ، أقامتْ معه العربيةُ لا تَرِيمُ ولا تَبْرَحُ، ما دامَ الإسلامُ مُقيماً لا يَتزحزحُ.

من ذلك الحينِ بدأتْ تتغلغلُ في النفوسِ فأصبحتْ لغةَ دينٍ ودنيا معاً، وزاحتِ البربريةُ عن أَلْسنةِ البربرِ فغلبتْ وبزَّتْ، وسلَّطتْ سِحْرَها على النفوسِ البربريةِ فَأَحالَتْها عربيةً.

كان ذلك كلُّه باختيارٍ لا أثرَ فيه للجبرِ، واقتناعٍ لا يدَ فيه للقَهرِ.

كذَبَ وفجَرَ مَنْ يُسَمّي الفتحَ الإسلاميَّ استعماراً، ومَنْ قالَ إن البربَرَ دَخَلُوا في الإسلامِ طَوْعاً فقد لَزِمَهُ بأنهم قد قَبِلُوا العربيَّةَ عَفْواً، لأنهما شيئانِ، متلازمانِ حقيقةً وواقعاً، لا يمكن الفصلُ بينهما، ومُحاوِلُ الفصلِ بينهما كمحاولِ الفصلِ بينَ الفَرْقَدَينِ».

إن أسلوبَ الإمامِ الراحلِ في الذَّودِ عنِ اللغةِ العربيةِ، يتَّسِمُ ببلاغتِهِ العظيمةِ، كما يمتازُ بِمَنْطِقِهِ السَّليمِ المُفْحِمِ.

* * *

الوحدة العربيَّة

كان الإمامُ الرَّاحلُ الشيخُ محمد البشير الإبراهيميُّ من أوائلِ الرُّوَّادِ العربِ الذين نَادوا بأهميةِ وحيويةِ الوحدةِ بين مختلِفِ الدُّولِ والأقطارِ العربيةِ.

ولقد تمكنَ الإمامُ البشيرُ ـ على الرَّغْمِ من جميعِ الصعوباتِ التي اعترضتْ طريقَهُ ـ تمكنَ من إصدارِ جريدتِهِ «البصائر» التي ما لبثتْ أن أصبحتْ من أعظمِ مَنَابِرِ الحريةِ والعروبةِ، ومن أقوى وسائلِ الدعوةِ إلى الإسلام: دينِ الحقّ، ودينِ العدالةِ والإنسانيَّةِ الكريمةِ.

ولقد شجَّعَ الإمامُ البشيرُ عدداً كبيراً من شبابِ الجزائرِ على الكتابةِ في جريدةِ البصائرِ، فأسْهَمُوا معه في إشعالِ جَذوةِ الجهادِ المقدَّسِ، وإعدادِ الشعب الجزائريِّ لتفجيرِ ثورتِهِ العظمى في الأوَّل من شهرِ نوفمبر سنة 1954، تلكَ الثورةِ الخالدةِ التي كانتْ في حقيقةِ الأمرِ ـ وما زالتْ ـ فخراً ما بعدَهُ من فخرٍ للأمةِ العربيةِ برُمَّتِها.

كان من أبرزِ هؤلاء الكتَّابِ الجزائريينَ الذين عاوَنُوه بأقلامِهِمُ البليغةِ: الأساتذةُ أحمد سحنونْ، وعبدالكريم العقونْ، وفرحات

الدراجي، ومحمود بوزوزو، وحمزة بوكوشة، ومحمد العيد، ومفدي زكريًا، وبوعزيز بن عمر، وغيرُهُمْ، ومنهُم الأدباءُ والشعراءُ، الذين اعتُبِرتْ كتاباتُهُمْ من أثمَنِ ما تَعْتَزُّ به اللُّغةُ العربيَّةُ في العصرِ الحديثِ.



البشير الشَّاعر

كان الإمامُ البشيرُ كما قَدَّمْنا كاتباً لا يُشَقُّ له غُبَارٌ، كما كان خطيباً بليغاً يستبدُّ بقلوبِ الناسِ وعقولِهم إذا اعتلى منبرَ الخَطَابةِ.

وكانَ عَلاوةً على كلِّ ذلكَ شاعراً عظيماً رصينَ الأسلوبِ، سَلِسَ العبارةِ.

وللإمامِ البشيرِ قصائدُ كثيرةٌ، يَتجاوَزُ عَدَدُ أبياتِها عشراتِ الألوفِ، ولكنَّ هذه الأشعارَ العظيمةَ لم تُطْبَعْ حتى الآنَ، ولعلَّ دُوْرَ النشر تهتم بعد ذلك بإصدارِ دواوينِ شعرهِ المختلفةِ، التي نَظَمَهَا في مُختلِفِ النواحِي الحيويَّةِ كالإشادةِ بالدينِ الإسلاميّ، وبعراقةِ وعظمةِ اللغة العربيةِ كلغةٍ أصيلةٍ لا غنىً عنها لأمةِ العرب، وما تَضَمَّنَتْهُ هذه الأشعارُ كذلك من التَّغَنّي بعروبةِ شعبِ الجزائرِ، وبأنَّه فَرْعٌ حَيَوِيٌّ مُزْهِرٌ من فروعِ الدَّوحةِ العربيَّةِ الباسقةِ.

وحينَ اعتقل المستعمرونُ الإمامَ البشير، لم يُوهِنْهُ الاعتقالُ، ولم يَفُتَّ في عَضُدِهِ، وإنْ كانَ قد نَالَ من صِحَّةِ جَسَدِهِ، وأورثَهُ الكثيرَ من الأمراضِ التي تَحَمَّلَها بصبرٍ وشجاعةٍ، ولكنَّ نشاطَهُ الفكريَّ

تضاعف في أثناء الاعتقال، فنظم آلافاً من أبياتِ الشِّعرِ التي تتغنَّى بعروبة الشعب الجزائريّ وتمسُّكه بالدين الإسلاميّ.

ومن أشعاره التي نظمها للذَّود عن اللُّغةِ العربية، قصيدةٌ طويلةٌ نخْتارُ منها هذين البيتين:

نَـغـارُ عـن أحـسـابِـنـا أنْ تُـمـتـهَـنْ
والـحُـرُّ عـن مَـجْـدِ الـجـدودِ مُـؤتَـمَـنْ
ولـغـةُ الـعُـرْبِ لِـسَـانٌ مُـمْـتَـحَـنْ
إنْ لَـم يَـذُدْ أبـنـاؤهُ عـنـه فَـمَـنْ؟

ومن أشعارِهِ في تمجيدِ الدينِ الإسلاميّ، تلك القصيدةُ التي نَظَمَهَا وكانَ يُخاطِبُ فيها أبطالَ الفتحِ الإسلاميّ للجزائرِ:

ونختار منها هذينِ البيتينِ؛

عَـوّضْـتَـهُـمْ عـنِ الـخَـسَـارِ الـرِّبْـحـا
فـأبْـصَـرُوا بـعـدَ الـظَّـلامِ الـصُّـبْـحـا
عَـلَّـمْـتَـهُـمْ كـرامَـةَ الإنـسـانْ
وجِـئْـتُـمْ بـالـعـدلِ والإحـسـانْ

* * *

جَمْعُ المُخَنَّث السَّالم!

قد يَعْجَبُ القُرَّاءُ من هذا العنوانِ: «جمع المخنث السالم»، ولَهُمُ الحقُّ في أن يَعْجَبُوا، فاللغةُ العربيةُ لا تَعْرِفُ سوى جمعِ المذكَّرِ السَّالِمِ، وجمعِ المؤنَّثِ السَّالِمِ.

ولكنْ ما هو جمعُ المخنَّثِ السَّالِمُ هذا؟

هذا التعبيرُ الفريدُ الذي يَدُلُّ على السُّخْرِيةِ المريرةِ، أطْلَقَهُ الإمامُ الراحلُ الشَّيخُ البشيرُ الإبراهيميُّ على هؤلاءِ الذينَ يدَّعونَ التجديدَ في الشعرِ، فلا يتقيدونَ بأصولِ اللغةِ العربيةِ فيما يكتبونَهُ، ولا يكترثونَ بالقوافي أو بأوزانِ الشعرِ الأصيلِ التي اتَّفَقَ عليها العَرَبُ..

حَدَثَ حينما كانَ الإمامُ البشيرُ يَزورُ مدينةَ القاهرةِ، أنْ قَرَأَ ما نَشَرَتْهُ بعضُ مَجلاَّتِهَا في ذلك الوقتِ من «أشعارٍ» يُطلقونَ عليها اسمَ «الشِّعرِ المنثورِ» أو غيرَ ذلك من المسمَّياتِ الأخرى.

وجَزِعَ الإمامُ البشيرُ أشدَّ الجَزَعِ حينَ قرأ ذلك، وألقى بعضُ هؤلاءِ المجدِّدينَ شيئاً من أشعارهم في نَدوةٍ كان فيها الشيخُ البشيرُ، فما كان منه إلا أن اعْتَلَى المِنبرَ وقالَ:

«إن اللغةَ العربيةَ على سَعَتِها، وكَثْرةِ مُفرداتِها، ناقصةٌ!. لأنّنا لا نَجِدُ فيها الكلمةَ أوِ الصِّفَةَ التي يمكنُ أن نَصِفَ بها هؤلاءِ الشعراءِ المجدِّدينَ.

«إلاّ أن لي من عُروبتي، وغَيرتي على لُغَتي، ما يَشْفَعُ لي بالاشتقاقِ فيها فأقولُ:

إن العربَ قد أعطَوا للنساءِ جَمْعاً ينتهي بألفٍ وتاءٍ، فقالُوا: «مُجَدِّدات، وسَمَّوهُ الجمعَ المؤنَّثَ السَّالِمْ. وأعطَوا للرجالِ جمعاً ينتهي بواوٍ ونونْ. فقالُوا: «مجدِّدونْ» وأسموه الجمعَ المذكَّر السَّالِمْ. ولكنَّ هؤلاءِ المجددينَ الذين سَمِعْتُهُمْ الليلةَ، لا هم بالنساءِ فيؤنَّثونَ، ولا هم بالرجالِ فيذكَّرونَ، إنهم بينَ ذلك، لا نَجِد أي حَرَج في أن نَتَّبِعَ أئمَتَنا الأجلاَّءِ، وفقهاءَنا الأدلاَّءَ، ونعطي أمثالَ هؤلاءِ المجدِّدينَ، ما أَعْطوه للخُنْثَى، أي نصيباً كَأُنْثَى وهو ألفٌ وتاءٌ، ونصيباً كَذَكَرٍ وهو: وَاوٌ ونونٌ، فنقولُ: «مُجدِّدونات، فإن سألتموني ماذا نُسَمِّي هذا الجمعَ؟.. أقولُ: نُسَمِّيهِ الجمعَ المُخَنَّثَ السَّالِمْ!

وَضَحِكَ جميعُ مَنْ كَانُوا في النَّدوةِ سِوَى هؤلاءِ «المجدِّدونات» بطبيعةِ الحالْ.

وما قاله الشيخُ البشيرُ يَكْشِفُ عن غَيرةٍ شديدةٍ على اللغةِ العربيةِ، ويُظْهِرُ لنا في نفسِ الوقتِ قدرتَهُ على السُّخْرِيةِ المريرةِ إنْ أرادَ ذلكَ.

* * *

ونَظَمَ الإمامُ البشيرُ أشعاراً يُسَمُّونَها بالأراجيز، كانَتْ في منتهى الرّوعة والبلاغةِ، منها مثلاً ما قالَهُ عن يومِ سُقوطِ الجزائرِ في يدِ الاستعمارِ:

ذكـــــراكَ يـــــا يَـــــومُ
تَـــحُـــزُّ فـــي الأحـــشَـــا
إذْ أقـــبـــلَ الـــقـــومُ
وحـــشٌ تَـــلا وحـــشـــا
لَـــهْـــفِـــي عـــلـــى هـــاوٍ
عـــلـــى شَـــفَـــا الـــقَـــعْـــرِ
قـــد تَـــلَّـــهُ غـــاوٍ
فَـــخَـــرَّ لـــلـــصَّـــدْرِ

* * *

الفصل الرابع

حَزْبُ العِلْم

«كانتِ الحربُ التي أَعْلَنَتْها «جمعيّةُ العلماءِ المسلمين الجزائريينَ» من أشرفِ وأعظمِ الحروبِ التي عَهِدَتْها الأُمَمُ من عربيّةٍ وغَرْبيّةٍ، كانَتْ حرباً لِغَرْسِ بُذورِ العلمِ، والعَمَلِ على إنْمائِهِ حتى يُؤتيَ ثِمارَهُ».

* * *

بعد ان ادّى الإمامُ الشيخ محمد البشير الإبرهيميُ رسالتهُ الجليلةَ في مدينةِ دمشقَ، كما سبقَ أنْ ذكَرْنا، عادَ إلى وطنِهِ الحبيبِ الجزائرِ.

عادَ الإمامُ البشيرُ إلى الجزائرِ ليجدَ الشيخ عبدالحميدِ بنَ باديسَ قد اتَّخذَ خطُواتٍ فعّالةً، لتنفيذِ المخطّط الذي رَسَماهُ معاً إبّانَ لقائِهما التّاريخيّ الخالدِ في المدينةِ المنوّرةِ على النحوِ الذي ذكَرْناه في الفصلِ الثاني من هذا الكتاب.

إنَّ إنشاءَ جميعةِ العلماءِ المسلمينَ الجزائريينَ يُعتبرُ، بلا مِرَاءٍ، من أهَمّ الحوادثِ في تاريخِ الشعبِ الجزائريّ المجاهدِ.

لقد أنشئَتْ هذه الجمعيةُ العظيمةُ في فترةٍ بَلَغَ فيها الاستعمارُ الفرنسيُّ أقصَى وأقسَى ما يُمْكِنُ ان يَبْلُغَهُ أيُّ استعمارٍ من الخِسّةِ والحقارةِ، والبُعْدِ كُلّ البُعْدِ عن أبْسَطِ مَبادىءِ الإنسانيّةِ.

كَانَ المستعمرونَ قد صادَرُوا وَسَلَبُوا السّوادَ الأعظمَ من الأراضِي الزراعيةِ، أو الأراضِي المعدَّةِ للبناءِ، سَلَبُوها بمختلِفِ الحُجَجِ والوَسائِلِ التي لا تَختلِفُ عَمّا يَفْعَلُهُ المغتصبونَ الصهاينةُ في

هذا العصرِ لِسَلْبِ أراضِي العربِ في المناطقِ المحتلَّةِ من فلسطين العربية.

إن لغةَ ووسائلَ أعداءِ الإنسانيةِ والحريةِ والكرامةِ، لا تختلِفُ من عصرٍ إلى آخَرَ، فهم أشبهُ ما يكونونَ بوحوشِ الغابِ، تَعرِفُ ولا تَعترِفُ إلا بلغةِ المخالبِ والأنيابِ!

وبلغَ اليأس ببعضِ الجزائريينَ أنهم تناسَوا كُلِّيَّةً قوميَّتُهُم العربيةُ، فصارُوا يكوِّنُونَ الأحزابَ والهيئاتِ التي كانَ هدفُها الأسْمَى يَرْمِي إلى جَعْلِ الجزائريينَ مواطنينَ فرنسيينَ، حتى يمكنهم بذلك أن يتمتَّعُوا بنفسِ الحقوقِ التي كان يَتَمَتَّعُ بها المستوطنونَ الفرنسيُّونَ الذينَ جَلَبَهُمُ الاستعمارُ إلى الجزائرِ!..

لقد أدركَ الشيخانِ المجاهدانِ عبدُ الحميدِ بن باديسَ والبشيرُ الإبراهيميُّ أن المطالبةَ بالحقوقِ الإنسانيةِ والسياسيةِ لأفرادِ الشعبِ الجزائريِّ لن تُجْدِي نَفْعاً، لأنَّ المستعمرَ لا يَفْهَمُ لغةُ المنطِقِ السليمِ، أو لغةَ العدالةِ الإنسانيةِ، وأن اللغةَ الوحيدةَ التي يَفْهَمُهَا، ويؤمنُ بها هي لغةُ القُوَّةِ.

كان عبدُ الحميدِ بنُ باديسَ قد افتتحَ عدداً كبيراً من المكاتبِ التي كانتْ تُدَرَّسُ فيها اللغةُ العربيَّةُ، وعلومُ التفسيرِ.

واختارَ ابنُ باديسَ مَسْجداً في مدينةِ (قُسنطينَة) كان يَؤُمُّ فيه

المُصلِّينَ، فإذا ما انتهتِ الصلاةُ عَكَفَ على تِلاوةِ بعضِ آياتِ الذِّكْرِ الحكيمِ، ثم يتولَّى بعدَ ذلكَ شرحَ معانِيها العميقةِ، بأسلوبٍ سَهْلٍ، يَفْهَمُهُ الخاصَّةُ والعامَّةُ.

وكانَ ابنُ باديسَ يختارُ من آياتِ القرآنِ الكَريمِ ما يَحُثُّ به الشعبَ على التماسُكِ والتضافُرِ في وجهِ المستعمرِ، وإطاعةِ أحكامِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، وما أوصى به الرسولُ ﷺ في أحاديثه النبويةِ الشريفةِ، وذلك مثلَ قولِهِ عزَّ وجلَّ في الآيتين الكريمتين الرابعة والأربعين والخامسة والأربعين من سورة الأنفال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

[صَدَقَ اللهُ العظيمُ]

وَسَمِعَ الجزائريونَ بأخبارِ تلكَ الدروسِ التي كان عبدُ الحميدِ بنُ باديسَ يُلقيها على مُستمعيهِ، فكانَتْ تَرْحَلُ إلى مدينةِ (قُسنطينةَ) الآلافُ من الناسِ، لكي يَستمِعُوا بِسَماعِ نَصَائِحِهِ وتوجيهاتِهِ.

كان هدفُ الرَّائدينِ العظيمينِ يتركَّزُ في إعدادِ الشعبِ الجزائريِّ للقيامِ بثورةٍ جَذْريةٍ، تُحقِّقُ التحريرَ الكاملَ، عن طريقِ إيمانِهِ بأنه جُزْءٌ لاَ يَتَجزأُ من الأمةِ العربيةِ الإسلاميةِ.

لقد نَفَّذَتْ جمعيةُ العلماءِ الجزائريينَ المسلمينَ بَرْنَامَجَها الضَّخْمَ باتِّباعِ خَطَّينِ رئيسيينِ:

1 ـ **الخطُّ الأوَّلِ**: وهو الحملاتُ الشعبيةُ عن طريقِ إلقاءِ الخطبِ في المساجدِ، والعنايةُ بتفسيرِ آياتِ الذِّكْرِ الحكيمِ، وكذلك في النَّوادي وعن طريقِ نَشْرِ المقالاتِ والبياناتِ التوجيهيةِ في مُختلِفِ الصُّحُفِ والمجلاتِ.

وفي كثيرٍ من الأحيانِ كان يلجأُ الإمامُ محمدٌ البشيرُ الإبراهيميُّ إلى استعمالِ العباراتِ الرَّمزيةِ في المقالاتِ التي يَنْشُرُها، وذلكَ لِيَبْتَعِدَ عن مُلاحقةِ رُقباءِ المستعمرِ.

من ذلكَ مثلاً ما نَشَرَهُ الإمامُ الراحلُ في جريدتِهِ «البصائرْ» إذ قالَ:

«نحن الكُهَّانُ، أفراسُ برهانٍ، مِنَّا السَّابِقُ المصلِّي، منَّا الآبِقُ المولِّي، كنا أرهاصاً للنبوَّةِ، ودليلاً للضَّعفِ إلى القُوَّةِ، فلما عادتِ الكِسرويَّةُ إلى شرائِعِها، والقيصريَّةُ إلى ذَرَائِعِها، آنَ لنا أَنْ نعودَ إلى الإنذارِ، ونصرخَ في وجوهِهِمْ: حذارِ!.. حذارِ، إنَّ بَطْشَ اللهِ تعالى لَشَديدٌ وإِنَّ الحديدَ قَدْ يَفُلُّ الحديدَ».

والإمامُ الراحلُ يَرْمُزُ بالكِسرويةِ والقيصريةِ إلى ما كان يَتَّبِعُهُ المستعمرونَ من أساليبِ القهرِ والظلمِ والقسوةِ التي كان يستعمِلُها أباطرةُ الفرسِ وقياصرةُ الرومِ قبلَ أن تقضيَ الفتوحاتُ الإسلاميةُ

المجيدةُ على قُوَّتِهِمُ الغاشمةِ، وتُعيدَ السِّلْمَ والطُّمأنينةَ والسَّعادةَ إلى الناسِ.

2 - الخطُّ الثَّاني: كانَ هذا الخطُّ يَتَمَثَّلُ في إنشاءِ عشراتِ بل مئاتِ المدارسِ في كافَّةِ أنحاءِ بلادِ الجزائرِ، ويكونُ هَدَفُ هذه المدارسِ توعيةَ أبناءِ الجيلِ النَّاشِىءِ، وتعميقِ الإيمانِ باللهِ سُبحانَه وتعالى وكتابِهِ الكريمِ، وتعميمِ تعليمِ اللغةِ العربيةِ باعتبارِها اللُّغةَ الأساسيَّةَ والجوهريَّةَ للشعبِ الجزائريِّ العربيِّ.

ولم تَقتصرْ مجهوداتُ الشيخينِ العظيمينِ على وَطَنِهِما الجزائرِ، بل تَعَدَّتْهُ إلى فرنسا نفسِها.

كانَ يُوجَدُ في فرنسا في ذلك الوقت أكثرُ من مائةِ ألفٍ من الجزائريينَ، الذينَ كانُوا يُمارسونَ أعمالاً مختلفةً.

وعَمِلَ الشيخانِ على تأسيسِ النَّوادِي في مدينتَي باريسَ ومرسيليا.

لقد تَمَّ تأسيسُ ثمانيةِ نَوادٍ كبيرةٍ للجزائريينَ.

وكانتْ هذه النَّوادِي كبيرةً ومتَّسعَةً، إذ إنَّ كلَّ نادٍ منها كانَ يَتَّسِعُ لأكثرِ من ثلاثةِ آلافٍ من الأعضاءِ.

وعُقِدَتِ اجتماعاتٌ كثيرةٌ في هذه النَّوادِي، وكان الخطباءُ الجزائريونُ يتناوبونَ إلقاءَ كلماتِهِمُ التي تَفيضُ بالوطنيةِ والدعوةِ إلى الاستمساكِ بالعقيدة المحمديةِ.

وكانتْ كُلُّ الخُطَبِ تُنَدِّدُ بسياسةِ الاستعمارِ الفرنسيِّ في الجزائرِ، وكيفَ كانتْ تُنَاقِضُ بِشَكْلٍ فَاضِحٍ كلَّ المبادىءَ التي أعلنتْها الثورةُ الفرنسيَّةُ عن الإخاءِ والعَدْلِ والمساواةِ.

وكان الخطباءُ في هذه النَّوادِي التي أُسِّسَتْ في فرنسا، يَتمتَّعونَ بحريةٍ كاملةٍ في نَقْدِ الاستعمارِ الفرنسيِّ، ومهاجَمَتِهِ، والكَشْفِ عن أعمالِهِ اللاَّإنسانيةِ التي كان يَقْتَرِفُها في الجزائرِ.

كانتْ حريةُ القول في النَّوادِي الجزائريَّةِ بمدنِ فرنسا، غيرُ مكفولةٍ كالنَّوادِي التي بأرضِ الجزائرِ، لذلك اكتسبتِ القضية الجزائريةُ العديدَ من الأنصارِ من بينِ الفرنسيينَ أنفسهم.

وقد بَرَزَ عددٌ من الجزائريين في ذلك الوقتِ، أمثالَ الشيخ الفضيل الورتلاني، والشيخ سعيد الصالحيّ وغيرِهما ممن لم يَكْتَفُوا بإلقاءِ الخُطَبِ في النَّوادِي، بل عَمَدُوا إلى نشرِ المقالاتِ العديدةِ في الصُّحُفِ الفرنسيَّةِ.

* * *

الفصل الخامس

جيلُ الثورةِ

«كلُّ مَنْ كَتَبَ عن تاريخِ الجزائرِ الحديثِ، لا بُدَّ وأن يعترفَ بفضلِ الإمامِ البشيرِ في إعدادِ الجيلِ الذي فَجَّرَ ثورةَ الأوَّلِ من نوفمبرَ سنةَ 1954».



كانتِ الخُطَّةُ التي رَسَمها في المدينةِ المنوَّرةِ الرائدانِ العظيمانِ عبدُ الحميدِ بنُ باديسَ ومحمد البشير الإبراهيميُّ من أعظمِ الخططِ التي تُرْسَم لإنقاذِ شَعْبٍ من الشعوبِ والنهوضِ به وتخليصهِ من بَرَاثِنِ الاستعمارِ.

إنَّ كلَّ مستعمرٍ يَعملُ على تَفَشِّي الجَهْلِ في البلدِ الذي يَستعمِرُهُ، ويَعمَلُ كذلك على بَثِّ بُذورِ الفُرقَةِ والتَّفرقةِ العنصريةِ والطائفيةِ والدينيةِ بينَ أفراد الشعبِ.

لقد وَجَدَ الشيخانِ الجليلانِ في أحكامِ القرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ النبويةِ الشريفةِ، خيرَ مُنْقِذٍ للشعبِ من جميع الوسائلِ الخبيثَةِ التي لجأ إليها المستعمرونَ، وبعضُ أذنابهم مِمَّن لاَ خَلاَقَ لهم.

لقد عادَ الإمامُ محمد البشير الإبراهيميُّ من مدينةِ دمشقَ إلى وطنِهِ الجزائرِ سنةَ 1921 ميلاديَّةً.

واتَّصلَ عَقِبَ عَودَتِهِ مباشرةً بالرَّائدِ ابنِ باديسَ، وعَقَدَ الإثنانِ اجتماعاتٍ كثيرةً مَعَ غَيْرِهِمْ من أبطالِ الجزائرِ في ذلكَ الوقتِ.

ولمَّا أُسستْ جميعةُ العلماءِ الجزائريينَ المسلمينَ سنةَ 1931 ميلاديَّةً، انتخبَ الشيخُ عبدُالحميدِ بنُ باديسَ رئيساً لها، كما انتخبَ الإمامُ البشيرُ الإبراهيميُّ نائباً للرئيس، بإجماعِ الأصواتِ.

وأعلنتِ الجميعةُ منذُ يومِ إنشائِها، أنَّ شِعارَها هو:

«الإسلامُ دينُنا والعربيَّةُ لغتُنا والجزائِرُ وطَنُنا».

وكلَّفَتِ الجميعةُ الشيخَ البشيرَ الإبراهيمي بأن يُشْرِفَ على أدَاءِ رسالةِ الجمعيةِ في منطقة (وَهرانَ) وهي من أهمِّ المناطِقِ في الجزائرِ.

وأنشأَ الإمامُ البشيرُ عدداً من المساجدِ والمدارسِ والنَّوادِي، حيثُ كانتْ تُدَرَّس اللُّغةُ العربيةُ وأصولُ الدينِ الإسلاميِ الحنيفِ، فأقبلَ الناسُ على ذلكَ إقبالاً عظيماً، يَدُلُّ دلالةً ساطِعَةً على أنَّ دماءَ العروبةِ الحقةَ النقيةَ تَجري في عروقِ كلِّ جزائريٍّ.

وكان المستعمرونَ يُقاوِمُونَ أعمالَ الشيخِ البشيرِ مقاومةً شديدةً لا هَوادَةَ فيها، أغْلَقُوا الكثير من المدارسِ والنَّوادِي، بل إنهم كانُوا يسجنونَ العلماءَ. في السجونِ مُدداً طويلةً، دونَ توجيهِ أيَّةِ اتِّهاماتٍ ضِدَّهم، إذ إنَّ الاتِّهام كان يَستتبعُ حَتْماً عَقْد المحاكمةِ، وكان المستعمرونَ يَخْشَونَ المحاكماتِ العلنيةَ التي تُثيرُ بلا شكٍّ أفرادَ الشعبِ، وتَضَعُ العلماءَ المحاكَمينَ في أوضاعِهِمُ الحقيقيَّةَ كمناضلين أبطالٍ.

* * *

خطرٌ داهم

ذكرنا فيما سبق أنّ اليأسَ بَلَغَ ببعضِ الجزائريينَ إلى الدَّرجةِ التي حفزتْهُمْ إلى إنشاءِ أحزابٍ وهيئاتٍ لا هَدَفَ لها ولا أملَ إلا السَّعيُ إلى جعْلِ الجزائريينَ يتمتعونَ بحقوق المستوطنينَ من الفرنسيين.

وفي سنة 1936 ميلاديّةً، أعلنتِ الحكومةُ الفرنسيةُ ما أسْمَتْهُ برنامج «فيوليت».

وكان هذا البرنامجُ يَرْسُمُ الخُطُواتِ والمراحلَ التي تنتهي بالإدماجِ التدريجيّ للشعب الجزائريّ ليصبح تابعاً لفرنسا.

كان برنامجُ «فيوليت» لا يَخْلُو من العروض المُغْرِيَةِ لبعضِ الجزائريينَ الذين كانُوا يتقِنُونَ التّحدُّث باللغة الفرنسية، أو على الأقلّ يعرفونها أكثرَ من معرفتهمُ اللُّغةَ العربيّة.

ولقد هَلَّلَتْ بعضُ الصحفِ المأجورةِ لهذا البرنامجِ، ثم أعْلِنَ بعد ذلك عن قُرْبِ عَقْدِ مؤتمرٍ أطلقوا عليه اسمَ: «المؤتمرِ الإسلاميّ الجزائريّ».

ورغم الأهداف المشبوهة التي كانت تَكْمُنُ وراءَ عَقْدِ هذا المؤتمر، فقد قرّرَ الشيخان الرائدانِ عبدُ الحميدِ بنُ باديسَ والبشيرُ الإبراهيميُ، الاشتراكَ فيه هما ومجموعةُ الرجالِ المؤيدينَ لهما والعاملينَ بحقيقةِ جهادِهما المقدّسِ.

وقوبلتِ الخطبُ التي ألقاها كلٌّ من ابنِ باديسَ والبشير بحماسٍ عظيمٍ.

وفي هذا المؤتمر عَمِلَ الإثنانِ على إحباطِ برنامجِ «فيوليت»، وإفشالِ ثمرةِ الجهود الكبيرةِ التي بَذَلَها المستعمرونَ وأذنابُهم لإنجاحه.

وفي الجلسة الختاميّة للمؤتمر الإسلاميّ الجزائريّ، ألقى الشيخُ عبدُ الحميدِ بنُ باديسَ قصيدةً عصماءَ من الشعر الوطنيّ، نختارُ منها الأبياتَ الثلاثةَ التاليةَ:

شَعْبُ الجزائرِ مُسْلِمٌ
وإلى العروبةِ يَنْتَسِبْ

مَنْ قالَ حادَ عن أصلِهِ
وقالَ ماتَ فَقَدْ كَذِبْ

أو رامَ إدماجاً لَه
رامَ المُحالَ من الطَّلَبْ

ونظراً لبلاغةِ القصيدةِ وسلاستِها، ولأنها صادفتْ هوىً وحماسةً

في قلوب الجزائريينَ، فإنها ما لبثتْ أن أصبحتْ نشيداً وطنياً، وصارَ الناسُ يُرَدِّدونها في كلِّ مكانٍ.



هكذا كانَ الرائدانِ العظيمانِ يُعِدَّانِ الجيلَ الذي أناطَ به القَدَرُ مُهِمَّةَ تفجيرِ ثورةِ الأوَّل من نوفمبر سنة 1954م.

والجزائريُّ الأصيلُ، عربيٌّ أصيلٌ، ولذلك فهو يَتَّسِمُ بالإخلاصِ والوَفَاءِ.

وكانَ الرئيسُ الجزائِرِيُّ الراحل هَواري بومدين، الذي قادَ جيشَ التحريرِ، كان هذا القائد وفياً كلَّ الوفاءِ لما قَدَّمَهُ الإمامُ محمد البشير الإبراهيميُّ من أعمالٍ جليلةٍ في سبيلِ النهوضِ بالوطنِ الأمِّ الجزائرِ، فلما تُوُفِّيَ البشيرُ كانَ التأثُّرُ البالغُ يَرْتَسِمُ بوضوحٍ على وجهِ بومدينَ، وألقى كلمةً قال فيها:

«رحمةُ اللهِ على الشيخِ الإبراهيميِّ، فهو أبونا جميعاً، وأبو النهضةِ الجزائريَّةِ، وتعازينا فيه لأنفسِنا ولكلِّ أبناءِ هذا الوطنِ، ورجاؤنا من اللهِ تعالى أن يُلهمَنا الصَّبْرَ الجميلَ، ويهيىءَ لنا من أسبابِهِ تحقيقَ كلِّ الأهدافِ المُثْلَى التي عاشَ من أجلِها الشيخُ الإبراهيميُّ، فصبرٌ جميلٌ واللهُ المُستَعَانُ».

لذلكَ لا يمكنُ فصلُ الثورةِ التحريريةِ التي اندلعتْ في أولِ

نوفمبرَ سنةَ 1954، عن الثورةِ الإصلاحيةِ والتعليميةِ التي حَمَلَ لِواءَها كلٌّ من الرائدينِ العظيمينِ عبدالحميد بن باديسَ والإمامِ البشيرِ الإبراهيميِّ، أسكنَهُما اللهُ فسيحَ جِنَانِهِ، وجَازَاهُما خَيرَ الجزاءِ.

* * *

الفصل السادس

فَلْسَفتُهُ التَّربَويَّة

«إنَّ الإِصلاحَ الدينيَّ القائمَ على كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ هو الأساس المتينُ للإِصلاحِ الاجتماعيِّ والسياسِيِّ».

* * *

جَديرٌ بنا - إزاءَ رائدٍ عظيمٍ مثلِ الإمامِ البشيرِ الإبراهيميِّ - أنْ نَدرُسَ ولو دراسةً عابرةً بعضَ آرائِهِ في التربيةِ، وذلكَ بالقَدْرِ الذي يَسْمَحُ به هذا الكتابُ.

لقد حَمَلَ الإمامُ البشيرُ الأمانةَ كاملةً بعدَ موتِ الشيخِ عبد الحميدِ ابن باديسَ.

لقد ماتَ ابنُ باديس بينما كَان الشيخُ البشيرُ معتقلاً بأمرِ المستعمرينَ.

وخَيِبَ المستعمرونَ أنهم قَضَوا على جهودِ جمعيةِ العلماءِ الجزائريينَ بعد موتِ رئيسها، واعتقالِ نائبِ الرئيسِ..

ولكنَّ الردَّ الحاسِمَ على ذلك جاءَ من أعضاءِ الجمعيةِ أنفسِهِمْ، إذ أنهم عَقَدُوا اجتماعاً عقبَ موتِ ابنِ باديسَ، وانْتَخَبُوا بالإجماعِ الإمامَ محمد البشيرَ الإبراهيميَّ رئيساً لها رَغْمَ اعتقالِهِ.

كان المعنَى الواضحَ من ذلك: أنَّ الاعتقالَ والتعذيبَ والاضطهادَ، كلَّها، أمورٌ لا تُعيقُ الجمعيةَ عن مواصلةِ أداءِ رسالَتِها الوطنيةِ العظيمةِ.

لقد كان الإمامُ البشيرُ يقضي فترة اعتقاله في تدبيج المقالات الوطنيةِ، أو في نظم الشعر كما سبق أنْ ذكرْنا.

وكان يُعطي هذه المقالات والتوجيهات إلى منْ يزورونهُ في مُعْتَقَلهِ اينشُرُوها على الناس.

ومن أقواله الخالدة في هذا الصدّد:

«أيُها الوطنُ الحبيبُ!.. سلامٌ عليك يومَ لقيت من «عقبة» براً، فكنتَ شامخاً مُشمخراً، ويوم لقيت من «بيجو» وحزبه شرّاً، فسلْمت مضطراً، وامسيتَ عابساً مكفهراً، وللانتقام مُسِرّاً، وسلامٌ عليك يوم تُصبحُ حراً، متهلّلاً مفترّاً، معتزّاً بالله تعالى لا مغْتراً».

إن توجيهاتِهِ الوطنية، كانَتْ مقترنةً دائماً أبداً، بإيمانِهِ العميقِ باللهِ جلَّ شأنُهُ، فهو في حبِّ اللهِ ورسولِهِ ﷺ، خيرُ وسيلةٍ لِوَحدةِ القلوبِ وتضامُنِها في سبيلِ الجهادِ المقدّسِ من أجلِ الوطنِ، تلكَ كانَتْ وجهةَ نظرِ الرسولِ ﷺ والخلفاءِ الراشدينَ، وغيرِهم من حُماةِ العروبةِ والإسلامِ.

وتلك أيضاً كانتِ المبادىء الساميةَ التي نَادَى بها أئمةُ العربِ في العصرِ الحديثِ، من أمثالِ محمد رشيد رضا، والشيخ محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني ومصطفى كامل وغيرُهُمْ.

* * *

كان الإمامُ البشيرُ لا يكتفِي بالحثّ على إنشاءِ المدارسِ ودورِ

بل كان يَحْرِصُ كلَّ الحِرْصِ على أن تنجحَ هذه المدارِسُ في العلمِ، وأداءِ رِسالَتِها.

لذلك كانَ يَعْقِدُ الاجتماعاتِ والنَّدوَاتِ بين آونةٍ وأُخرى، تارةً للمعلمينَ، وتارةً أخرى لتلاميذ هذه المدارسِ.

كانَ - رضيَ اللهُ عنه - يُلقِي توجيهاتِهِ التربويةَ الثمينةَ على المجتمعينَ في هذه النَّدَواتِ.

ومن أقوالِهِ إلى المعلمينَ قَوْلُهُ:

«ها أنتم قد تبوَأْتُمْ في مدارِسِكُمْ ميادينَ جهادٍ، فاحرِصُوا على أن يكونَ كُلُّ واحدٍ منكم بطلَ ميدانٍ، وأوقِفُوا أنفسَكُمْ لإحدى خطَتين: الدفاعِ المجيدِ، أو موتِ الشهيدِ واعلَمُوا أنكم عاملونَ مسؤولونَ عن أعمالكُمْ، فَمَجْزِيُّونَ عنها من اللهِ سُبحانَه وتعالى ومن الأُمَّةِ ومن التاريخ!».

ولعلِّي لستُ بحاجة إلى التعليق عما في هذا القولِ من عمقِ الفَهْمِ لطبيعةِ رسالةِ المعلِّمِ.

وفي إحدى الندواتِ التي عَقَدها الشيخُ البشيرُ للطَّلَبةِ، وقَفَ فيهم خطيباً، وَأَلْقَى على مسامِعِهِم خطبةً طويلةً اختتمها بقولِهِ:

«إنكم، يا أبناءنا، مناطُ آمالِنا، ومستودُع آمانِينا، نُعِدُّكم لِحملِ الأمانةِ وهي ثقيلةٌ، ولاستحقاقِ الإرثِ وهو ذو تَبعاتٍ وتكاليفَ.

يا أبناءَنا، إن الحياةَ قسمانِ: حياةٌ علميةٌ، وحياةٌ عَمَليةٌ، وإن

الثانيةَ منها تُبنَى على الأولى قُوَّةً ومنعة، وإنتاجاً وَعُمْقاً، وإنكم لا تكونونَ أقوياءَ في العملِ حتى تكونُوا أقوياءَ في العِلْم».

لا عجبَ إذن، أن يكونَ الجيلُ الذي أَسْهَمَ الشيخُ البشيرُ الإبراهيميُّ في إعدادِهِ، هو الجيلَ الذي نجحَ في تفجيرِ ثورةِ الأوَّل من نوفمبر سنة 1954، تلكَ الثورةِ التي يَفتخرُ بها كلُّ فرد في وطنِنَا العربيّ الكبيرِ من الخليج إلى المحيطِ.

ومن أقوالِهِ أيضاً:

«إن شبابَ الأُمَّةِ، هو الدَّمُ الجديدُ في حياتِها، فمن الواجبِ أنْ يُصانَ هذا الدَّمُ عن أخلاط الفسادِ، ومن الواجبِ أن يَتَمثَّلَ فيهمُ الطُّهرُ، والفضيلةُ، والخيرُ، ومن الواجبِ أن تُربَّى ألسنَتُهُم على الصّدقِ وقَوْلِ الحقّ، لا على البذاءِ وعوراتِ الكلامِ».

* * *

كان الإمامُ الرائدُ محمد البشير الإبراهيميُّ يَعْتَزُّ اعتزازاً كبيراً بأصالةِ ونقاءِ الدمِ العربيّ، ولذلك فإنه كان يُعارضُ معارضةً شديدةً زَواجَ الرجالِ العَرَبِ من نساءٍ أجنبياتٍ.

ولقد كَتَب الشيخُ البشيرُ في العَدَدِ الثانِي من جريدةِ البصائرْ:

«إن منكم مَنْ يَحْتَقِرُ لُغَةَ الأُمَّةِ، فلا يُقِيمُ لها وَزْناً وفيكم من يأنَفُ من خُؤُولتها لأبنائِهِ فيختارُ لهم أخوالاً غُرباءَ، وإن بعضَ ذلك

لَفَدْحٌ محسوسٌ في أمتِكُم الحاضرة، وإن بعضهُ لَسمٌّ مدسوسٌ في أعراقِ أمتِكُمْ المقبلةِ».

ومن أقوالِهِ المأثورةِ أيضاً:

«إن هذا الأجنبيَّ الحاقدَ الحانِقَ يُريدُ لأمتكم أن تكون هيكلاً لا تترابطُ أجزاؤهُ، ولا تتماسكُ أعضاؤه، يُوَجِّهُ وَجْهَهُ إلى الغربِ، ويمكِّنُ في أفكارِهِ لأهواءِ الغرب، وفي لسانِهِ لِرَطَانَاتِ الغربِ، وهو يريد أن يقتلعَ جذورَ هذه الأمة من تربةٍ، ويغرسَها في تربةٍ، فتأتي مصفوفةً هزيلةً لا من هذه، ولا من هذه».

ويضيفُ الإمامُ البشيرُ قائلاً:

«إن هذا الأجنبيَّ يريد تعطيلَ لغتكم بينكم، بعدما عَجِزَ عن تَزْحِيلها من بلادِكُمْ.

«إن اللغةَ العربيةَ هي لسانُ العروبةِ، الناطقُ بأمجادِها، الناشرُ لمفاخِرِها وحكمِها، فكلُّ مُدَّعٍ للعروبةِ: مُشاهِدُه لسانُهُ، وكلُّ مُعْتَزٍّ بالعروبةِ فهو ذليلٌ إلا أنْ تَمُدَّهُ هذه المُضْغَةُ اللَّيِّنَةُ[1] بالنصرِ والتأييدِ، فلينظرْ أدعياءُ العروبةِ، الذين لا يُديرونَ ألسنَتَهم على بيانِها، ولا يُديرونَ أفكارَهُمْ على حِكمتِها، في أيَّةِ منزلةٍ يضعونَ أنفسَهم..!».

وفي مناسبةٍ أخرى يقولُ الإمامُ الشيخُ محمد البشيرُ الإبراهيميُّ

---

(1) يقصد بالمضغة اللينة: اللسان. [المؤلف].

قولاً يكادُ ينطبق كلّ الانطباقِ على ما يفعلُهُ الصهاينةُ الآنَ بفلسطينَ العربيَّةِ.

قال: «إن هذا الأجنبيَّ الحاقدَ الحانِقَ، ليتآمَرُ اليومَ على أمّتِكُمْ ليطمسَ معالِمَها ويشوّهَ مآثِرَها ومفاخِرَها، ليتمكَّنَ من جعلها مستعمرةً لأفكاره وأخلاقه، بعد أن عجز عن تأييد استعمارها بجُيوشِه ومعدّاته، فَقفوا كلكم في وجهه موقفَ المُرابِط في الثغر، والمُجاهِد في المَيدانِ».

وأخيراً خَتَمَ الإمامُ البشيرُ الإبراهيمي كلامه بالآية الكريمة:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

* * *

كانَ، رَحْمَةُ اللهِ عليه ورِضوانه، يَتَّخذ من إيمانِهِ العميق باللهِ تعالى وبكتابِهِ العزيز معيناً لا ينضب، يفجرّ منه فيض وطنيته العارمة، ويستلهم من نُور الإيمان بالدِّين الإسلامي الحنيف شعاعاً يبدِّد به ظُلمَات الجهْل والتخبّطِ التي أرادَ المستعمرون وأذنابهم أن يُسرْبلوا بها الوطن الجزائري العظيم.

وكان لهذا المزيج الرائع من الإيمانِ باللهِ تعالى والإيمانِ بحرّية الوطن، أعظم الأثرِ على الجزائريين، بل امتد هذا الأثر فشَمَلَ ملايين العرب الذين كانوا يطّلعون على أقوال الإمام الإبراهيمي.

* * *

(1) سورة آل عمران، الآية: 139.

الفصل السابع

البشيرُ والعُروبة

* * *

كان الإمام محمد البشير الإبراهيمي من أوائل الزعماء والمفكرين العرب الذين بذلوا قصارى جهودهم لإرساء دعائم القومية العربية، على أسس سليمة مدروسة.

كان الإمام البشير يؤمن إيماناً عميقاً بأن قومية الأمة العربية تعتمد أولاً وأخيراً على تعاونها واتحادها.

وقد رأى ببعد نظره وثاقب بصيرته، من الأمور ما تَحَقَّقَ بعده بزمن قليل.

كانت فرنسا تَدّعي في ذلكَ الوقتِ أنها منارةَ العِلم التي **تُرْسِلُ** أضواءَ المعرفةِ لِتَغْمُرَ بها العالم المتمدين، وكانت **في نفسِ الوقتِ** تَضْطَهِدُ الوطنيينَ في الجزائر والمنادين باستقلالها أبشعَ الاضْطِهادِ.

لذلك، فقد رأى الإمامُ البشيرُ، بحدّةِ ذكائه، **أن يُضفي على** صُورِ جهادِهِ الوطني، الصِّيغَة العلميَّة، حتى يكونَ **بِمنْجاةٍ من اضطهادِ** المستعمرين.

وكان مَسْلَكه هذا يدلُّ على ذكاءٍ وَبُعْدِ نَظَرٍ **قلَّ أن يَتَوافَرَ نظيرهُما**

في الزعماء العرب، أو دعاةِ الحركاتِ التحريرية، الذين يطغى حماسهم على مُقتضياتِ الحِكْمةِ وبُعْدِ النظر، فَيَخْسَرُونَ أكثر مما يَربَحُون.

ذلك أن النِّضالَ ضدَّ المُسْتَعْمِرِ يَسْتَلْزِم استعمالَ كل الأسلحةِ الممكنةِ، ومن أهمها سلاح الحكمة وحُسْن التخطيط.

* * *

جنود العلم

إن تَعْبيرَ جُنود العلمِ من التعبيراتِ العظيمةِ الرائدة التي ابتكرها الإمام الإبراهيمي. لقد كان بدراسته العميقة المستفيضة يَعْلَمُ تمام العلم أن ازْدِهَارَ أمجادِ الأُمَّةِ العربيةِ في العهودِ الماضية، كان يرجع إلى أمرين أساسيَّين: الأمرُ الأولُ إيمانها العميقِ بالله تعالى وتعاليم رسوله الكريمﷺ، والأمر الثاني اهتمامها بالعلم والثقافة، ذلك الاهتمامُ الذي جعل من أُمَّة العرب مركزاً عظيماً للإشعاع الحضاري أفاد منه العالم بأكمله.

كان الإمام الإبراهيمي يعلمُ أنه من المُستحيلِ التفرقة بين الدِّين الإسلامي والعِلْم، فالقرآن الكريم، والأحاديث النَّبوية الشريفة. تدعو إلى التسلُّح بالعِلْم، لذلك كان هدفُ المستعمرِ في الجزائر محاولَةَ سَلْخ الجزائر العربية عن أمجادِ عروبتها التالدة، وتاريخها الإسلامي المجيد.



كان الشيخ عبد الحميد بن باديس، رضي اللهُ عنه وأرْضاه، قد

انتقل إلى الرفيق الأعلى في اليوم السادس عشر من شهر إبريل ـ نيسان ـ سنة 1940 ميلادية.

وبذل الإمام البشيرُ كلَّ ما في استطاعته لكي يُبقي على (جمعية العلماء)، ويُذكي شُعْلَتها، ويضاعف من حَيَويتها، وذلك بعد خروجه من المعتقل.

ووجَّه الإمام الإبراهيمي، دعوةً عامةً إلى جميع أعضاء جمعيةِ العلماء، وجميع المُنْتَسِبين إليها والمُتَحَمسِين لرسالتها السَّامِية.

لقد دَعَا كل هؤلاء إلى اجتماع كبير:

كان هذا الاجتماعُ هو الخطوةُ الأولى، أو بمعنى أدقّ، الدَّفعةُ الأولى لانطلاقةٍ قويةٍ عارِمةٍ، باركَ اللهُ سُبحانه وتعالى فيها فَظَلَّتْ مندفعةً حتى حقَّقتْ الجزائر حرِّيتها، واستمرَّتْ في اندفاعِها لتحقِّق للشعب الجزائري رفاهيته، وستظلُّ كذلك بإذن الله عز وجل لتفيدَ منها الأمَّةُ العربية جمعاء.

لقد ألقى الإمام البشير في هذا الاجتماعِ الكبيرِ خطبةً عَصْماءَ، تَضَمنت الكثيرَ من التوجيهاتِ التربوية والوطنيةَ والدينيةَ.

ولا رَيْبَ في أنَّ هذه الخطبةَ العظيمة تُعْتَبَرْ مِن التراثِ الذي يَعْتزُّ به كُلُّ جزائري، بل كلُّ فرد في الوطن العربي الكبير من المحيط إلى الخليج.

قال الإمام البشير للمدعوين:

أنتم جنود العلم، ولكلمةِ جنديّ معنى يبعثُ الرَّوعةَ، ويوحِي بالاحترام، ويجلب الشَّرَفَ، ويُعلي القيمةَ: لأنه في غاية معناه حارسُ مجدٍ، وحافظُ أمانةٍ، وقيِّمُ أُمَّةٍ.

لذلك، كان من واجبات الجندي الصبرُ على المكاره، والثباتُ في الشدائدِ والأزمات، والسمعُ والطَّاعةُ فيما يغمُضُ على الأذهان فهمُه من العلل، ويَعْسُر على العقول فهمُهُ من الحِكَمِ».

وأدركَ المستمعون المعنى المزدوجِ الذي كان يَرْمي إليه الإمام البشير، فلقد كان يتحدث في الظَّاهِرِ عن جنودِ العلمِ والمعرفةِ، وكان حديثُه في الوقت نفسه عن جنودِ تحريرِ الوطنِ من رِبْقَةِ المستعمرِ...

ودوّتْ قاعةُ الاجتماع بالتصفيق الحادّ، وعمّت القلوب حرارةَ الوطنية.

وانتظر البشير الإبراهيمي حتى هدأتْ عاصفةُ التصفيق، ثم قال في صوت هادىء عميقٍ، صوتُ الرجل المتواضعِ لله وللوطن، المتعالي على المستعمرِ الغاصبِ، والمعتزّ بعروبته وإسلامه:

«إخواني، اعْلموا أنَّ الجنديَّ إذا استرسَلَ في الجَزَعِ والشَّكوى، أو خَانَهُ الصبرُ فلاذَ بالجَزعِ، خَانَهُ النَّصْرُ... وضاعَ الثَّغْرُ...».

ثم أضاف البشير في صوتٍ قويٍّ يفيضُ بالحماس:

«إنما أنتم حرّاسُ دُرُوبٍ، ومُرابِطَةُ ثُغُورٍ، فاصْبروا.. وأثْبُتوا، وقد كَفَيْنَاكُمْ سُدَادَ الرأي، فهاتوا أنتم سُدادَ الإرادة، وسُدَادَ العمل».

ودوَّتْ القاعةُ بالتصفيقِ الحادِّ والحارِّ مرةً أخرى.

وتخلَّلتْ التصفيق هُتافاتٍ حماسية بحياة الجزائر العربية المسلمةِ حرةً مستقلةً.

واسْتطردَ الإمام البشير يقول:

«إنكم ممثلو جميعةِ العلماءِ في ناحيةٍ من أهمّ أعمالِها، وهي التربيةُ والتعليمُ.

إنَّ كلَّ واحدٍ منكُمْ صورةٌ مصغرةٌ من الجمعية في نظرِ الأمة.

وجمعيةُ العلماءِ هي رمزُ الدينِ الصحيحِ، وحارسُ الفضيلةِ الإسلاميةِ، وهي المثال المفسِّرُ للحكمةِ المحمدية بأحسنِ تفسيراتها، وهي المثلُ المضروبُ في مقاومة الباطِلِ والمبطلين، وهي مظهرُ القوَّةِ الدينية اعتقاداً وعملاً، فهي لذلك كلِّه مِلْءُ سمعِ الأمَّةِ وبصرِها، وهي الأريْجُ المتضوِّعُ بسُمْعَةِ الجزائر في العالم الإسلامي».

ونلفت الأنظار هنا إلى ما كان يردِّدُه الإمام البشير الإبراهيمي دائماً في خطبهِ ومقالاتِهِ التي كان ينشرها في مختلفِ الصحف والمجلاَّتِ العربية، إلى اعتبار الجزائر جزءاً لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير.

كما أنه كان يربطُ دائماً بين حكمةِ الرسالةِ المحمدية وبين الدعوة إلى دَحْضِ حُجَّةِ الباطلِ والمبطلين، وهم دعاةُ الاستعمار.

وأكمل الإمام خطبته قائلاً:

«كونوا في مظهرِكُمْ ومَخْبرِكُمْ أمثلةً صحيحةً منها، واعلمُوا أنَّ كلَّ زَلَّةٍ منكم - وإن صَغرتْ - محسوبةٌ على جميعةِ العلماءِ منسوبةٌ إليها».

ثم انْتَقَلَ الإمامُ البشيرُ بعد ذلك إلى التوصياتِ التي كانَ يراها لازِمةً وجوهريةً لتنشئةِ جيلِ الثورةِ، فقالَ:

«أنتم حراسُ هذا الجيلِ الجديدِ، والمؤتمنُونَ عليه، والقَوَّامُونَ على بنائِهِ.

أنتم بُناةُ عقولِهِ ونفوسِهِ، فابْنُوا عقولَهُ على أساس من الحقيقةِ، وابنُوا نفوسَهُ على هَزَّةٍ من الفضائلِ الإنسانيةِ، وأشربوه عِرفانَ قيمتها، فإن مَنْ لم يَعْرِفْ قيمةَ الثمينِ أضَاعَهُ.

لقد غُبِنَتْ هذه القِيمُ في عَصْرِكُمْ فكانَ ما تَرَونَ من فَوضَى واختلاطٍ».

ثم يُعَرِّجُ الإمامُ الإبراهيمي بعد ذلك على الناحية الوطنية فيقولُ لهم:

«رَبُّوهم على التحابُبِ في الخيرِ، والتآخِي في الحقِّ، والتَّعاون

على الإحسانِ، والصبر على الضَّيْمِ، والإقدامِ إلاَّ على الشَّرّ، والإيثارِ إلا بالشَّرَفِ، والتَّسَامُحِ إلا بالكرامَةِ.

«امزجوا لهم العلمَ بالحياةِ، والحياةَ بالعلمِ، ولا تعمروا لهم أوقاتَهم كلَّها بالقواعدِ، فإن العُكوفَ على القواعدِ هو الذي صَيَّر علماءَنا مثلَ «القواعدِ»[1]، وإنما القواعدُ مُجَرَّدُ أساسٍ، وإذا أُنفقتِ الأعمارُ في القواعدِ فمتى يَتِمُّ البناءُ؟.

«رَبُّوهم على أن يعيشوا بالروحِ في ذلك الجوّ المُشْرِقِ بنورِ الإسلامِ وآدابِهِ وتاريخِهِ، ذلك الجوّ الذي يستوي ماضيه ومستقبله في أنهما طرفا حقّ لا يشوبه الباطِلُ، وحاشيتا جديدٍ لا يَبْلِيه الزمنُ، وعلى أنْ يعيشوا بالبدنِ في هذا الزمن الذي يَدينُ بالقَسْوةِ، وعلى أن يلْبسُوا لَبُوسَ عَصْرِهِمْ الذي يَبْني الحياةَ على قاعدتين هما:

«إنْ لم تَكُنْ آكِلاً كُنْتَ مَأْكُولاً».

«كن عبداً للشيطان قوياً، ولا تكن عبداً لله ضعيفاً»[2].

* * *

(1) أي بهم جمود مثل قواعد البناء الأصم.
(2) جريدة البصائر رقم: 123.

مأساةُ ضَياعِ فلسطين

لمَّا ضاعَتْ فلسطين العربية، وَأُنْشِئَتْ على أرْضِها دولةُ الصهاينة التي ما لَبِثَتْ أن انشَبَتْ مخالبها في الشعب العربي بأسره، تأثر الإمام البشير لذلك أبلَغَ التّأثر وأعْمَقَهُ، وحَزّ في نفسه الألمُ العظيمُ، وحَزِنَ على فلسطين وكأنها جزء غالٍ من وطنه المحبوب الجزائر، ولا عجب في ذلك، فقد كان يؤمن إيماناً راسخاً، بأنَّ الأمَّة العربية جسمٌ واحدٌ، إذا تألَّمَ عضوٌ منه تَدَاعَتْ له جميعُ الأعضاءِ.

ومن أقوالِه المأثورة في ضَياعِ فلسطين العربية قوله:

«ما أضاعَ فلسطينَ إلا العَرَبُ!..

لقد جاءَتْهُمُ النُّذُرُ فتمارَوا بها!..

ثم حقَّ الأمرُ وهم ساهونَ فاندهشوا!..

ثم وقعتِ الواقعةُ فأبلسوا!..

وَعَمَدَ خطباؤُهُمْ إلى الخُطَبِ يُنمّقُونها، وشُعراؤُهُمْ إلى القصائِدِ يُزوِّقونَها، وساسَتُهُم إلى الدعاوَى يُلفِّقونَها، وعامَّتُهُمْ إلى الخرافاتِ

يُصدِّقُوها!.. بينما عَمَدَ مُلوكُهُمْ إلى الإمداداتِ يعوِّقونَها، وإلى الأهواءِ يُنفقونَها.

وَعَمَدَ خُصومُهُمُ اليهودُ إلى الغاياتِ يحقِّقونَها، وإلى العهودِ يُمزِّقونَها.

وقُضِيَ الأمْرُ، وأوسعناهم سبّاً، وأصبحْنا نقولُ: نحن كنا أهلَ فِلسطِينَ!..

ومِن أقواله العظيمة أيضاً:

ـ لقد عوَّد العربُ الخَصْمَ على ألاَّ يلْقَوه جميعاً، فَعَوَّدَهُمْ على أنْ يلْتَهِمَهُمْ جميعاً».

وهي حقيقة برزتَ لنا أخيراً بشكل بيِّنٍ واضح.

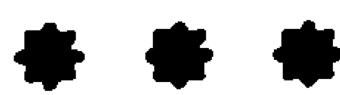
* * *

الفصل الأخير

نهايةُ الإِمام البشير

«إنَّ أفضلَ هَدِيَّةٍ نُقَدِّمُها لهذه الرُّوحِ الطَّاهرةِ، أن نقتفيَ أثرها، ونقتديَ بها في سلوكِها، وبذلك نَفِي بعَهْدِها..».

[الشيخ عمر دردور]



قَضَى الشيخُ البشيرُ الإبراهيمي فترةً طويلةً في الاعتقالِ أثَّرتْ في صحتِهِ تأثيراً سيِّئاً.

وحينَ أُفرجَ عنه، كانَ في أَمَسِّ الحاجَةِ إلى الراحةِ، ولكنه لم يَرْحَمْ نَفسَهُ، فواصلَ العملَ ليلَ نهارَ كما قَدَّمنا.

وأخيراً، اشتدَّ بجسمه النحيلِ المرضُ، ورَغْمَ تطوُّعِ عَدَد كبيرٍ من الأطباءِ لمعالجتِهِ، فقدْ اختارَهُ اللهُ إلى جِوارِهِ ظُهْرَ يومِ الخميسِ الموافِق للعشرينَ من شهرِ مايو ـ أيار ـ سنة 1965 ميلاديَّةً.

ماتَ في داره بمدينةِ الجزائرِ، وما كادَ الناسُ يسمعونَ بخبرِ موتِهِ حتى تدفَّقُوا إلى دارِهِ، وقد غَمَرَهُمُ الحزنُ الأليمُ..

وأجهشَ الكثيرونَ بالبكاءِ بصوتٍ عالٍ! مما دَفَعَ أحد مريديه إلى أن يصيح فيهم:

«مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّداً فإنَّ محمداً قد ماتَ، ومَنْ كانَ يَعْبُدُ الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموتُ».

وهو نفسُ القولِ الذي قاله أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، بعد

أن اشتدَّ الحزنُ بالمسلمينَ عَقِبَ وفاةِ النبيِّ ﷺ، فَأذهَلَهُمُ الخبرُ، ولم يُصَدِّقُوهُ.

وصُلِّيَ على جُثمانِهِ في الجامِعِ الأعظمِ، وذلك بعد أدَاءِ صلاةِ الجمعةِ، واكتظتِ الشوارعُ المحيطةُ بالجامِعِ الأعظمِ، بعشراتِ الألوفِ من الناسِ.

وكَانَ الناسُ يُرَدِّدُونَ:

الله أكْبَرُ..

إلى رَحمةِ اللهِ يا أبا الشَّعبِ!..

وداعاً يا حبيبَ الشَّعْبِ!..

وسارتِ السيَّارةُ التي تَحْمِلُ النعشَ تَشُقُّ طريقَها بصعوبةٍ بالغةٍ بينَ ذلك البحرِ المتلاطمِ من البشرِ الباكينَ.

وسارَ في وَسَطِ مَوْكِبِ الجنازةِ وزراءُ الدولةِ الجزائريةِ المستقلةِ الحرةِ، ثم رؤساءُ الهيئاتِ والمنظماتِ الوطنيةِ.

وقُطِعَتِ المسافةُ التي بينَ المَسْجدِ الأعظمِ والمقبرةِ في أكثرِ من ساعتينِ لشدةِ ازدحامِ الناسِ، رغم أنها لم تكنْ تتجاوزُ الخمسةَ كيلومتراتٍ.

كان الموكبُ كلَّما مرَّ بأحد الأحياءِ انْضَمَّ إليه رجالُ هذا الحيِّ ونِسَاؤُهُ وأطفالُهُ، والجميعُ يبكونَ في حُزْنٍ عميقٍ.

مؤلفاته

كان الإمامُ الراحلُ ـ كما ذكرنا ـ من أكابر خطباء الارتجال المفوَّهين، أديباً، شاعراً، غزير الإنتاجِ، ولكنَّ السَّوادَ الأعظمَ من كتاباتِهِ لم يَتِمَّ ـ للأسفِ الشديدِ ـ طبعُها إلى الآنَ.

إنَّ الكثيرينَ من رجالِ الأدب في الجزائرِ يؤكدونَ أن الشيخَ البشير نَظَمَ ستَّةَ وثلاثين ألفَ بيتٍ من الشعرِ خلالَ فترةِ اعتقالِهِ.

وقد تضمنتْ هذه الأشعارُ تاريخَ الجزائرِ، وتقاليدَ الشعبِ الجزائريِّ وجهادَهُ المقدَّسَ في سبيلِ نَيْلِ الحريةِ، والاستقلالِ.

وله عَلاَوةً على ذلك مؤلَّفاتٌ أُخرى منها:

1 ـ أسرارُ الضمائرِ العربيةِ.

2 ـ كاهنةُ أوراسَ [قصة روائية].

3 ـ التَّسميةُ بالمَصْدَرِ.

4 ـ الاطِّرادُ والشُّذوذُ في اللُّغةِ.

5 ـ رسالةُ الضَّبِّ.

6 ـ عُيُونُ البصائرِ.

ولم يُطْبَعْ وَيُنْشَرْ من كلٍّ هذه الكتبِ سوى الجزء الأول من كتابِهِ الأخير: «عيونُ البصائرِ».

وذَلكَ علاوةً على مئاتِ المقالاتِ والبياناتِ التي كان يَنْشُرُها في مُخْتَلِفِ صُحُفِ وَمَجَلاَّتِ الوطنِ العربيِّ.

ماتَ الإمامُ الشيخُ محمد البشير الإبراهيميُّ، ولكنَّ ذِكراهُ سَتَظَلُّ عِطَرَةً خالدةً إلى الأبدِ.

* * *

الفهرس


رقم
-02-



صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة
بمناسبة الذكرى الخمسين لعيد الاستقلال



البشير الإبراهيمي

عظيم من الجزائر



دار الأبحاث

العنوان: 38 شارع عبدوني - الدار البيضاء - الجزائر
هاتف: 0021321744281+ - فاكس: 0021321748569+
بريد الكتروني: abhaath@hotmail.com